الهدية

في

مواعظ الإمام ابن تيمية

تقديم

أ. د. مصطفى بن محمد حلمي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

جمع وترتيب

عادل بن فتحي رياض

مكتبة النوعية الإسلامية

للتحقيق والنشر والبحث العلمي

هـ : ٥٨٦٨٦٠٥

الطبعة الأولى للكتاب
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

الناشر
مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي .

---

١٤ ش سويلم من ش الهرم – الطالبية – جيزة .

هاتف : ٥٨٦٨٦٠٥ هاتف مصور : ٣٨٣٦٣٤٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرورأنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أما بعـد ،

فقد أصاب ابننا الباحث الأستاذ عادل فتحى رياض فى تجلية الحياة الوجدانية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ورد الشبه التى أثارها حوله خصومه بوصفه بالجمود أو قسوة القلب أو تحجر الفؤاد ؛ إذ إن سيرته ومؤلفاته بين أيدينا تفيض بذكر الأحوال التى مرَّ بها الإمام ، فتصُفُّه فى مصافٍّ العابدين المتقين متفوّقاً على سير المعروفين بالصوفية ، ولكن تمتاز أحوال الشيخ بأنه يتقيد بالكتاب والسنّة ولم يحد عنهما أبداً .

وهذا الكتاب يزيل الحواجز المتعسفة بين العقل والإرادة ويسهل الطريق — بعون الله تعالى — أمام المسلم الذى يريد اجتياز الطريق إلى الله تعالى بمنهج صحيح لا يتضمن غموض وتعقيدات الفلاسفة ولا بدع الصوفية وفى كلمة موجزة نختصر بها مضمون الكتاب ، نكتفى باقتباس إحدى عبارات ابن تيمية التى قال فيها :

« فإن العابد لله ، والعارف بالله فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، بل فى كل لحظة ، يزداد علماً بالله وبصيرة فى دينه وعبوديته ، بحيث يجد ذلك فى طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله ، ويرى تقصيره فى حضور قلبه فى المقامات العالية ، وإعطائها حقها ، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار بل هو مضطر إليه دائماً فى الأقوال والأحوال ، فى الغوائب والمشاهد ، لما

فيه من المصالح وجلب الخيرات ، ودفع المضرات ، وطلب الزيادة فى القوة فى الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية . »[1] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

شعبان ١٤١٧ هـ

ديسمبر ١٩٩٦ م

أ . د/ مصطفى بن محمد حلمى

(١) الفتاوى (١١ / ٦٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله تعالى عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد ، فلا تخفى على طالب العلم إمامة شيخ الإسلام ابن تيمية فى علوم الشريعة ، «فإن العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فإنه لم يكن له مستعار ، بل كان له شعار ودثار »[1] .

قال عنه الإمام ابن سيد الناس : كاد يستوعب السنن والآثار حفظاً ، إن تكلم فى التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالنحل والملل لم يُرَ أوسع من نحلته فى ذلك ، ولا أرفع من درايته ، برز فى كل فن على أبناء جنسه ، ولم ترعينُ مَنْ رآه مثله ، ولا رأت عينُه مثل نفسه أ . هـ .

ولكن غاب عن كثير من الباحثين وطلاب العلم جانبٌ من حياة الشيخ قَلَّ مَنْ تعرض له ، وهو أخلاقه ، وعبوديته ، وابتهاله ، وجهاد نفسه ، والإخبات لربه، وكلماته الجامعة ، ومواعظه النافعة ، وانقياده للحق ، وتواضعه للخلق .

وبعض من أراد أن يتكلم عنه من تلك الناحية الروحيَّة ، جانَبَ الرشادَ وجعله من الصوفيَّة .

---

(١) «الأعلام العلية » ص ٢٠ .

وبعض من نظر إليه من ناحية العقيدة ومحاربته للبدع وكثرة ابتلائه بالسجن والخصوم ؛ ظن أنه لا يعرف إلا الرسوم .

ومن ذلك قول الشيخ عبدالحليم محمود – عفا الله عنه – وقد سأل أحدَ الباحثين عن الموضوع الذى يكتب فيه ، فقال له الباحث : أتناول بالدراسة قاعدة المحبة لابن تيمية . فتبسم الشيخ وقال : وهل عند ابن تيمية محبة! [1] .

هكذا قال الشيخ متعجباً – رحمه الله – فأُهدى هذا الكتاب إلى كل مَن تهاون بشأن شيخ الإسلام ، ولم يعرف قدره ، إلى من يظن أن عبودية الله لا تعرف إلا من كتب الصوفية ، وقد قال أبو البقاء السبكى : والله مايبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى ، فالجاهل لا يدرى ما يقول ، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به [2] . ا . هـ

وتلك الهدية هى الجزء الأول من مواعظ شيخ الإسلام وكلماته الجامعة ، ويليه – إن شاء الله – الجزء الثانى ، وعن قريب يصدر نظيره لشيخ الإسلام أبى عبد الله الذهبى شمس الدين ، صاحب المواعظ الدقائق ، والكلمات الصواعق، التى تنزل على القلوب كالسِّياط ، فتخشع لها الجوارح والنِّياط ، ومن يطالع « سير أعلام النبلاء » يتجلى له ذلك دون خفاء .

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ذكر أحواله وعبادته .

الثانى : ذكر كلماته الجامعة .

الثالث : ذكر مجالس من مواعظه .

---

(١) « التصوف فى تراث ابن تيمية » ص ٧ .

(٢) « الرد الوافر » ص ٥٩ .

ومما يجدر التنبيه إليه أن تلك المجالس ليست بالمعنى المعروف عند العلماء ، وإنما انتقيتها وسبكتها مجالس للوعظ ، ليسهل اتخاذها كذلك .

والأقسام الثلاثة منتقاة من « مجموع الفتاوى » – الأجزاء العشرة الأولى[1] –، و « منهاج السنة النبوية » ، ومن ترجماته : المفردة « كالعقود الدرية » و « الرد الوافر » و « الأعلام العلية » وما جاء فى « الدرر الكامنة » و « الذيل على طبقات الحنابلة » ومن « جامع الرسائل » ، و « ناحية من حياته » لخادمه إبراهيم بن أحمد ، ومن نُقُول الإمام ابن القيم عنه فى كتبه « كالوابل الصيب »، « ومدارج السالكين » ، و « روضة المحبين » ، و « إغاثة اللهفان » وغير ذلك من الكتب التى تكلمت عن شيخ الإسلام .

وكما قلت آنفاً : ما تلك الهدية إلا طليعة منتقاة لمواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية وعن قريب نعرض للقراء هذا الجانب من حياة مؤرخ الإسلام الذهبى (الجزء الأول) وبقية مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية (الجزء الثانى) .

والحمد لله رب العالمين .

بقلم

عادل فتحى رياض

٥ رجب ١٤١٧ هـ

١٦ نوفمبر ١٩٩٦ م

---

(١) ثم أضفت الأجزاء (١٢ ، ١٣ ، ١٤) ، وأرجأت سائر «الفتاوى» ومؤلفات الإمام الأخرى ، إلى الجزء الثانى من «الهدية» ؛ وبهذا أكون قد استقصيت – بفضل الله – ما يتعلق بزهد شيخ الإسلام ومواعظه وكلماته الجامعة .

القسم الأول

في ذكر أحواله وعبادته

لقد كان لشيخ الإسلام – رحمة الله عليه – من الأحوال والعبادات ما رسَّخ علمه في نفوس وقلوب أصحابه وبوأ له ذلك من المكانة العظمى في نفوس من جاء بعده الكثير والكثير ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقد قيل قديما «من لم ينفعك لحظه لم ينفعك وعظه (*)» ولذلك سَبَّقتُ أحوال وعبادة شيخ الإسلام على وعظه ليكون ذلك أنفع ، وهذا الذي وقفت عليه ، وظني أنني لم أقف على الكثير فمن ذلك :

* قال ابن القيم : ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – من ذلك [1] أمراً لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيراً : مالى شيء، ولا منى شيء ، ولا فيَّ شيء .

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المُكَدِّى وابن المكدِّى (**) وهكذا كان أبى وجَدِّى

وكان إذا أُثنى عليه فى وجهه يقول : والله إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً .

وبعث إلىَّ فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطه ، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقيرُ إلى رب البرياتِ أنا المُسَيْكِينُ فى مجموع حالاتى
أنا الظلومُ لنفسى وهْى ظالمتى والخيرُ إنْ يأتنا من عنده ياتى

---

(١) يريد خشوعه وذله وانكساره .

(*) وفي رواية «لفظه» .

(**) المُكَدِّى : الذى يلح في المسألة . وتمثل به الإمام افتقاراً إلى الله وإظهاراً لذُّلِّه وانكساره له سبحانه وتعالى .

لا أستطيع لنفسى جلبَ منفعةٍ ولا عن النفس لى دفع المضراتِ
وليس لى دونه مولىً يدبِّرنى ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن منَ الرحمن خالقنا إلى الشفيع كما قد جاء فى الآياتى
ولست أملك شيئاً دونه أبدا ولا شريك أنا فى بعض ذرات
ولا ظهير له كى يستعين به كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لى وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبداً وصف له ذاتى
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبد له آتى
فمَنْ بغى مطلباً من غير خالقه فهو الجهول الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله ملء الكون أجمعه ما كان منه وما من بعد قد ياتى ا.هـ [1]
[ثم الصلاة على المختار من مضر خير البرية من ماضٍ ومن آتى] [2]

* وقال – رحمه الله – : ما يصنع أعدائى بى ؟! أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بذلتُ ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندى شكر هذه النعمة . أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير.

قال ابن القيم : وكان يقول فى سجوده – وهو محبوس – : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، ما شاء الله .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه .

---

(١) « المدارج » (١/٥٢٤ – ٥٢٥) .
(٢) زيادة من « العقود » ص ٣٧٥ .

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

قال ابن القيم : وعلِم الله ، ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق .

وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبواباً في دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها أ . هـ (١) .

* وفي محنة الشيخ كان ثابت الجأش ، راسخ الجنان ، يقول خادمه إبراهيم ابن أحمد : فلما كان بعد صلاة العصر وقفت أبكي ، فقال لي الشيخ : لاتبك، ما بقيت هذه المحنة تبطيء . فقلت له : أفتح لك في المصحف ؟ فقال : افتح . فطلع قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل ١٢٧- ١٢٨] فقال : افتح في موضع آخره ، فطلع قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] إلى آخرها ، فقال : افتح آخره، فطلع قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ [الفتح : ٢٩] إلى آخرها .

---

(١) « الوابل » ص ٦٩ - ٧٠ ، و« الذيل » ٢/٤٠٢ - ٤٠٣ .

فلما صلينا المغرب بقى يدعو بدعاء الكرب ، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً ... كان وجهه شمع يجلوه مثل العروس . أ . هـ (1) .

* وكان شيخ الإسلام – رحمه الله – ورعاً عفيفاً ، عابداً ناسكاً ، صواماً قواماً ، ذاكراً لله تعالى فى كل أمر وعلى كل حال ، رجّاعاً إلى الله تعالى فى سائر الأحوال والقضايا ، وقّافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر بالمعروف ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال ،ولا تكل من البحث ، وقلَّ أن يدخل فى علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مستدركات فى ذلك العلم على حُذّاق أهله ، مقصوده الكتاب والسنة (2) .

* وقال – رحمه الله – : إنه ليقف خاطرى فى المسألة والشىء أو الحالة ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر ، وينحل إشكال ما أشكل .

قال : وأكون إذ ذاك فى السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة ، لا يمنعنى ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبى (3) .

* وقال الذهبى : كان إماماً متبحراً فى علوم الديانة ، صحيح الذهن ، سريع الإدراك ، سيال الفهم ، كثير المحاسن ، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم ، فارغاً

---

(1) « ناحية من حياة شيخ الإسلام » ص 31 .
(2) « العقود » ص 5 .
(3) السابق ص 6 .

من شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له فى غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه [1] .

وقال أيضا : إنه دائم الابتهال ، كثير الاستغاثة والاستعانة به ، قوى التوكل، ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يُدْمِنُها [2] .

* وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلّم آدم وإبراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ، وأمَرِّغ وجهى فى التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يا معلم إبراهيم فهمنى [3] .

* قال عنه تلميذه عمر البزار : وكان فى ليله متفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عزوجل ضارعاً ، مواظباً عل تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ... وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيره الإحرام ، فإذا دخل فى الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميله يمنة ويسرة [4] .

قال : وكان قد عرفت عادته ، لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر ، فلا يزال فى الذكر يسمع نفسه ، وربما يسمع ذكره من إلى جانبه ، مع كونه فى خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء ، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهى عن الصلاة [5] .

---

(١) « الذيل » (٢ / ٣٩٠) .
(٢) السابق (٢ / ٣٩٤) .
(٣) « العقود » ص ٢٦ .
(٤) « الأعلام العلية » ص ٣٨ .
(٥) السابق ص ٤٠ .

قال : وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها ، ولا كان يخوض في شيء من حديثها ، ولا يسأل عن شيء من معيشتها ، بل جعل همته وحديثه في طلب الآخرة ، وما يُقَرِّبُ إلى الله تعالى [1] .

قال ابن القيم : وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرةً ، صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال : هذه غدوتي ، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي .... وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر [*] .

وقال : قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة [**] .

* وقال له السلطان محمد بن قلاوون : إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك .

فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة ، وقلب ثابت ، وصوت عالٍ سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك !! والله إن ملكك وملك المُغْل لا يساوي عندي فِلْسَيْن [2] .

* وكان ذا فراسة لا تكاد تخطىء ، قال ابن القيم : ولما طلب إلى الديار المصرية، وأريد قتله بعد ما أنضجت له القدور ، وقلبت له الأمور ، اجتمع أصحابه لوداعه ، وقالوا : قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك ،

---

(١) « الأعلام » ص ٥٦ .
(٢) السابق ٧٤ .
(*) « الوابل الصيب » ص ٦٣ .
(**) « المدارج » (٢/٢٦)

فقال : والله لا يصلون إلى ذلك أبداً . قالوا : أفتحبس ؟ قال : نعم ، ويطول حبسى ، ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رءوس الناس [المدارج ٢ / ٤٩٠] .

لا مكان للدنيا فى قلبه ، وإنما نفسه تواقة لا ترضى إلا بجوار ربها ، شَدَّ مئزره ، وحَمل عصاه على عاتقه ، فلم يضعها حتى أتاه اليقين .

قال ابن القيم : « وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية يقول - وقد عرض له بعض الألم ، فقال له الطبيب : أضر ما عليك الكلام فى العلم والفكر فيه والتوجه والذكر . فقال - : ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها له قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض ، فإنه عدوها ، فإذا قويت عليه قهرته ؟ فقال الطبيب : بلى.فقال:إذا اشتغلت نفسى بالتوجه والذكر والكلام فى العلم ، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض [١] . أ . هـ .

« وكان - رحمه الله - يتحرى التصدق بين يدى الصلاة والدعاء ما أمكنه ، لأنه إذا استحبت الصدقة بين يدى مناجاة النبى ﷺ ، فاستحبابها بين يدى مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى » [٢] . [مفتاح دار السعادة ٢ / ٣٨٧]

ماذا يقول الواصفون له وصفاته جلت عن الحصْرِ
هو حجة الله قاهرة هوبيننا أعجوبة الدهْرِ
هو آية للخلق ظاهرة أنوارها أربت على الفْجرِ [٣]

(١) «مفتاح دار السعادة »٢/١٧٠ / ١٧١ ومختصراً في «الروضة » صـ ٧٠ .

(٢) لأن نسخ وجوب الصدقة بين يدى مناجاة الرسول ﷺ لم يبطل حكمه بالكلية ، بل نسخ وجوبه وبقى استحبابه والندب إليه ، كما فى المصدر المذكور أعلاه .

(٣) الأبيات لابن الزملكانى فى « العقود » ص ٩ ، و« الذيل » ٢/٣٩٢ .

كأن العلم وُضِعَ بين عينيه . أو اختلط بلحمه ودمه ، مذهبه الدليل . وشيخه الخليل ﷺ .

* قال الذهبي : إن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، وسرد وأبلسوا ، واستغنى وأفلسوا . . . فإنه كان رباني الأمة ، وفريد الزمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب معضلات المسلمين .

قال : يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث [1] . أ . هـ .

حَبْرٌ تسربل منه دهره حبراً	بحر تقاذف من أمواجه الدررُ
قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا	مقام سيد تيم إذ عصت مضرُ
فأظهر الدين إذ آثاره درست	وأخمد الشرك إذا طارنت له شرُر [2]

قال ابن القيم : وحدثني تقي بن شقير قال : خرج شيخ الإسلام بن تيمية يوماً ، فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد ؛ سمعته يتمثل بقول الشاعر :

وأخرجُ من بينِ البيوتِ لعلّني	أحدِّثُ عنكَ القلبَ بالسرِّ خاليَا [*]

أُحْرِقَتْ شهواته . فطعامه الكفاف ، وشرابه دفع الظمأ ، ولباسه التقوى ، لم تشغله صاحبة ولا ولد .

* قال عمر البزار : أخبرني غير واحد أنه مارآه ، ولا سمع أنه طلب طعاماً قطُّ ، ولا غداء ولا عشاء ، ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من

---

(١) « العقود » ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) الأبيات لأبي حيان في « الذيل » (٢/٣٩٢) ، و « الدرر الكامنة » (١/١٥٢) .

(*) « الروضة » ٢٨١ .

العلم والعمل ، بل كان يؤتى بالطعام ، وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه، وإذا أكل ، أكل شيئاً يسيراً [1] .

قال : وكانت بذاذة الإيمان عليه ظاهرة ، لا يرى متصنعاً فى عمامة ولا لباس ولا مشية ولا قيام ولا جلوس ، ولا يتهيأ لأحد يلقاه ، ولا لمن يرد عليه من بلد [2] .

وكان يدنى الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء ، حتى إنه ربما خدمه بنفسه ، وأعانه بحمل حاجته ، جبراً لقلبه ، وتقرباً بذلك إلى ربه [3] .

وأما حاله مع أعدائه وخصومه فعجيبة ؛ قال ابن القيم : وما رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم .

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرنى وتنكر لى واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم ، وقال : إنى لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه [المدارج ٢/٣٤٥] .

* أما حال الشيخ فى جهاد أعداء الإسلام فاكتفى فيه بقصة واحدة أختم بها هذا القسم من الكتاب .

قال أحد أمراء الشام : قال لى الشيخ – يوم اللقاء ، ونحن بمرج الصُّفَّر ، وقد تراءَ الجمعان – : يا فلان ، أو قفنى موقف الموت .

(١ ، ٢) « الأعلام » ص ٥٥ – ٥٦ .
(٣) السابق ص ٥٢ .

قال : فسُقتُه إلى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم .

ثم قلت له : يا سيدى ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة ، فدونك ما تريد .

قال : فرفع طرفه إلى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفتيه طويلاً ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، وأما أنا ، فخيل إلىّ أنه دعا عليهم ، وأن دعاءه استجيب منه فى تلك الساعة .

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير ، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار .

قال : وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار .

فقلت : يا سيدى ، لك البشارة بالنصر ، فإنه قد فتح الله ونصر ، وها هم التتار محصورون بهذا السفح ، وفى غد - إن شاء الله تعالى - يؤخذون عن آخرهم . قال : فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ودعا لى فى ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته فى ذلك الوقت وبعده [1] . أ . هـ .

* هذه قطرة من بحر لجى عن أحوال المجدد شيخ الإسلام ، لعلها تصادف قلباً زكياً وعقلاً ذكياً ، وهمة تريد أن تلحق بالصالحين ، وعبداً جعل نفسه وقفاً لحمل راية الإسلام ، « لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن

---

(١) « العقود » ص ١٧٨ .

عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه – ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه – ملبسه ماتهيأ ، ومأكله ما تيسر واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها ، فواهاً له ، ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! والله المستعان »[1] .

(١) « المدارج » (١/٩٠) باختصار .

القسم الثاني

في ذكر كلماته الجامعة

... لا يخفى على كل ذى لب وبصيرة أن من جُمعت له العلوم ، وسُبكت أمامه الفهوم ينتقى منها كل ثمين وينفى عنها كل زائف أن ييسر الله له ويجرى على لسانه من الكلمات الجوامع والقواعد الحسان واللآلىء والمرجان مما دلت عليه الشريعة وأيدته السنة الصحيحة ، فرأيت انتقاء بعضا من ذلك مما يُسهل للواعظ أن يفرقه في وعظه كحلو المجالس فمن ذلك :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى :

* كُلُّ نِقْمَةٍ منه عَدْلٌ ، وكُلُّ نِعْمَةٍ منه فَضْلٌ [م ١٠ / ٨٥ – ٢٤٩] (*)

* مَن أراد السعادة الأبدية ، فليلزم عتبة العبودية [المدارج ١ / ٥٣١] .

* الربُّ يُحِبُّ أَنْ يُحَبَّ [م ١ / ٥٤] .

* إنَّ الكرامةَ (١) لزومُ الاستقامة [م ١٠ / ٢٩] .

* الرضا والتوكل يكتنفان المقدورَ ، التوكل قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه[فمن توكل على الله قبل الفعل ، ورضى بالمقضى له بعد الفعل فقد قام بالعبودية] (**) [م ١٠ / ٣٧] .

* المُحِبُّ التام لا يؤثر فيه لَوْمُ اللائمِ وعذْلُ العَاذِلِ بل ذلك يُغْريه بملازمة المحبة [م ١٠ / ٦١] .

* لا يُنال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر [م ١٠ / ٤٠] .

* إن فى الدنيا جنة ، مَنْ لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة (٢) [الوابل ٦٩]

---

(١) فى « المدارج » – منزلة الاستقامة (٢/١٠٥) – : أعظم الكرامة ...

(٢) يعنى بالجنة : معرفة الله ومحبته والأنس به .

(*) أشرت بالحرف (م) إلى «مجموع الفتاوى» .

(**) زيادة من «المدارج» (٢ / ١٢٢) .

* المحبوسُ من حُبِسَ قلبهُ عن ربه تعالى ، والمأسورُ من أسَرَه هواه

[الوابل ٧٠/ الذيل ٤٠٣] .

* الدين كله علم بالحق وعمل به ، والعمل به لابد فيه من الصبر .

[م ١٠/ ٣٨].

* العبادات مبناها على الشرع والاتباع ، لا على الهوى والابتداع

[م ١/٨٠] .

* إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه ، فإن الرب تعالى شكور . [المدارج ٢/٦٨]

* أولياءُ اللهِ هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور ، وتَرْكِ المحظورِ ، والصَّبْرِ على المَقْدورِ [م ١/٨٥] .

* كلما قويت محبة العبد لمولاه ؛ صَغُرت عنده المحبوبات وقلَّتْ ، وكلما ضَعُفَتْ كثرتْ محبوباتُه وانتشرتْ [م ١/٩٤] .

* الصبر الجميل : هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل : هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل : هو الذى لا أذى معه .

[المدارج ٢/١٦٠]

* حصولُ العلمِ فى القلب كحصولِ الطعام فى الجسم ، فالجسمُ يُحِسُّ بالطعام والشراب ، وكذلك القلوبُ تُحِسُّ بما يتنزل إليها من العلوم التى هي طعامها وشرابها [م ٤/٤١] .

* الرب سبحانه يريدك لك ، ولمنفعتك بك ، لا لينتفع بك ، وذلك منفعة عليك بلا مضرة ، فتدبر هذا [م ١/٣٠] .

* العبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر ، وذنب منه يحتاج

فيه إلى الاستغفار ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً ، فإنه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار [م ١٠/٨٨] .

* الإمامة فى الدين موروثة عن الصبر واليقين [م ١٠/٣٨] .

* الذنوبُ سببٌ للضُّر ، والاستغفارُ يُزيل أسبابَه [م ١٠/٢٥٥] .

* شهادةُ التوحيد تفتح باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر [م ١٠/٢٥٦] .

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت : ٣٠] قال : استقاموا على محبته وعبوديته ، فلم يلتفتوا عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً [المدارج : منزلة الاستقامة][١] .

* النفس مثل الباطوس – جُبُّ القذر – كلما نبشته ظهر وخرج ،ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل ، ولا تشتغل بنبشه ، فإنك لن تصل إلى قراره ، وكلما نبشته ظهر غيره [المدارج ٢/٣١٣ – ٣١٤] .

* نفسك تطلب منك الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة

* جهادُ النفس والهوى أصلُ جهاد الكفار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه حتى يخرج إليهم [روضة المحبين ٤٧٨] .

* العارف لا يرى له على أحد حقاً ، ولا يشهد له على غيره فضلاً ، ولذلك لا يعاتِبُ ولا يطالِبُ ولا يُضَارِبُ [المدارج ١/٥٢٣] .

* الصبر على أداء الطاعة أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ،

---

(١) (٢/١٠٤) .

فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.[المدارج ٢ /١٥٧] .

* ما ندم من استخار الخالق ، وشاور المخلوقين ، وثبت فى أمره
[الوابل ١٥٨] .

* كل قائل إنما يحتج لقوله لا به ، إلا الله ورسوله [الأعلام العلية ٣٠] .

* لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض فى قلبه [الأعلام ٧٤] .

* المخلوق إذا أنعم عليك بنعمة أمكنك أن تكافئه ، ونعمه لا تدوم عليك ، بل لابد أن يودعك ، ويقطعها عنك ، ويمكنك أن تستغنى عنه ، والله - عز وجل - لا يمكن أن تكافئه على نعمه ، وإذا أنعم عليك أدام نعمه ، فإنه أغنى وأقنى ، ولا يُستغنى عنه طرفة عين [مواقع الحمد ٤٩] .

* العوارضُ والمِحَنُ هى كالحر والبرد ، فإذا علم أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما ، ولم يغتم لذلك ولم يحزن [المدارج ٣ /٣٨٩] .

* ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء
[المدارج ١ /٥٤] .

* قال النبى ﷺ : « **اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد** [1] » قال شيخ الإسلام : الخطايا توجب للقلب حرارةً ونجاسةً وضعفاً ، وترخى القلب وتضرم فيه نار الشهوة وتنجسه ، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذى يمد النار ويوقدها ، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه ، والماء يغسل الخبث ويطفىء النار ، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة ، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى فى التبريد وصلابة الجسم وشدته ، فكان أذهب

---

(١) البخارى (٧٤٤) ، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبى هريرة .

لأثر الخطايا   [إغاثة اللهفان ١ / ٩٤] .

* كمال التوحيد : ان لا يبقى فى القلب شيء لغير الله أصلاً ، بل يبقى العبد موالياً لربه فى كل شيء ، يحب من أحب وما أحب ، ويبغض من وما أبغض ، ويوالى من يوالى ، ويعادى من يعادى ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما نهى عنه   [المدارج ٣ / ٤٨٥] .

* مَنْ فارق الدليل ضَلَّ السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول .
[مفتاح دار السعادة ١ / ٣٠٤] .

* لا تكون عبادةٌ إلا بحبِّ المعبودِ ، ولا يكون حمدٌ إلا بحب المحمودِ ، وهو سبحانه المعبودُ المحمودُ   [المنهاج ٥/٤٠٤] .

* الإنسانُ فى الدنيا يَجدُ فى قلبهِ بذكرِ الله وذكرِ مَحَامِدهِ وآلائهِ وعبادَته من اللذَّةِ ما لا يجدُه بشيءِ آخر .   [المنهاج ٥/٣٨٩] .

* ما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

[م ٨/٣٢٩] .

* ترك المكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب   [م ٧/٦٥٣] .

* العلمُ إما نَقْلٌ مصدَّق عن معصوم ، وإما قولٌ عليه دليلٌ معلوم ، وما سوى هذا فإما مُزَيَّفٌ مردودٌ ، وإما موقوفٌ لا يعلم أنه بَهْرَجٌ ولا مَنْقُودٌ
[م ٣١/٣٢٩ - ٣٣٠] .

* العلمُ إما نَقْلٌ مصدَّقٌ ، وإما استدلالٌ محقَّقٌ . [م ١٣/٣٤٤]

* لا رَيْبَ أنَّ لذةَ العلم أعظمُ اللذاتِ ، واللذةُ التى تبقى بعد الموتِ ، وتنفعُ فى الآخرة هى لذةُ العلم باللهِ والعملِ له ، وهو الإيمانُ به .
[م ١٤/١٦٢]

* لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة ، فيتشربها ، فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ، ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات [1] [مفتاح دار السعادة ١ /٤٤٣] .

* تحقيقُ قولِ «لا إله إلا الله» هو : إثباتُ تأليه القلب لله حبًا خالصًا وذلاً صادقًا ، ومنعُ تأليهه لغير الله ، وبغضُ ذلك وكراهتُه ، فلا يعبدُ إلا اللهَ ، ويُحِبُّ أنْ يعبدَه ، ويُبْغِضُ عبادةَ غيره ، ويحب التوكلَ عليه وخشيتَه ودعاءَه ويبغض التوكلَ على غيره وخشيتَه ودعاءه . [م ١٤/ ٢٨٠]

* المقصودُ بالزهدِ : تركُ ما يضرُّ العبدَ في الآخرةِ ، وبالعبادة : فعلُ ما ينفعُ في الآخرة ، فإذا تَرَكَ الإنسانُ ما ينفعه في دينهِ وينفعُه في آخرته ، وفَعَلَ من العبادة ما يضر فقد اعتدى وأسرف ، وإنْ ظنَّ ذلك زهداً نافعًا وعبادةً نافعةً . [م ١٤/ ٤٥٨] [2] .

* إنَّ المعاصيَ قَيْدٌ وَحَبْسٌ لصاحبها عن الجَوَلانِ في فَضَاءِ التوحيد ، وعن جَنْي ثِمَارِ الأعمالِ الصالحة . [م ١٤/٤٩]

* الإنسانُ إذا كان مستقيمًا على طاعةِ اللهِ باطنًا وظاهراً ؛ كان في نعيم الإيمان ، والعلمُ واردٌ عليه من جهاته وهو في جنة الدنيا . [م ١٤/ ١٦٠]

انتهى ما انتقيتُه من كلمات شيخ الإسلام وتركتُ الكثيرَ الكثيرَ المنثورَ في فتاويه وكتبِ تلاميذه وأصحابهِ ، ولعل ما ذُكرَ هنا يَكْفِي ويَشْفِي ، والظَّمْآنُ يكفيه من الماءِ القليلُ .

---

(١) قال ابن القيم عقب إيراده لهذه الوصية : فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك . أ . هـ .

(٢) في «المدارج» (٢/١٠) : الزهد : ترك ما لا ينفع في الآخرة ، والورع : ترك ما تخاف ضرره في الآخرة .

القسم الثالث

في ذكر مجالس من مواعظه

فاتحة المجالس : « حقيقة التوحيد »

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – :

إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته ، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ، ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ، ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه فى عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم – واعظم – فى خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ، ولا فلاح ، ولا نعيم ، ولا لذة بدون ذلك بحال بل من أعرض عن ذكر ربه ﴿ **فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾ [طه : ١٢٤] ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله رأس الأمر . . .

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه معاذ عن النبى ﷺ أنه قال : « **أتدرى ما حق الله على عباده** » ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : « **حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً** » . « **أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك** » ؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم .

قال : « **حقهم أن لا يعذبهم** » [(١)] .

وهو يحب ذلك ويرضى به ، ويرضى عن أهله ، ويفرح بتوبة من عاد إليه كما أن فى ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه . .

---

(١) البخارى (٢٨٥٦) ، ومسلم (٣٠) .

فليس فى الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه ، ومن عبد غير الله - وإن أحبه وحصل له به مودة فى الحياة الدنيا ، ونوع من اللذة - فهو مفسدة لصاحبه ، أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٢] فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق ، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهاً حقاً ، إذ الله لا سمى له ، ولا مثل له ، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها [م/١ ٢٣ - ٢٤] .

مجلس فى « إخلاص التوحيد والاستغفار » :

ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَنْ قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار** »(١) .

فإن الإخلاص ينفى أسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين « لا إله إلا الله » لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار ، بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار ، « **والشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل** »(*) ؛ ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة أن يقول : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] . والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفاً منه ، وإما رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك . وفى الحديث الذي رواه ابن أبى عاصم وغيره (٢) **عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الشيطان :**

---

(١) أحمد (٤/٤١١) ، وابن حبان (٤) بلفظ : «دخل الجنة» وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» ومعناه ثابت فى الصحيحين ، وروى ابن حبان من حديث سهيل بن بيضاء مرفوعاً (رقم ٣) : **«من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار»** .

(٢) ابن أبى عاصم فى «السنة» (٧) ، وأبو يعلى (١٣٦) ، قال الألبانى : إسناده موضوع .

(*) أبونعيم في الحلية (٣/٣٦-١١٤) عن ابن عباس ، (٧/١١٢) عن أبي بكر ، (٨/٣٦٨-٢٥٣) عن عائشة ومن حديثها أيضاً الحاكم (٢/٢٩١) وصححه ، وضعفه الذهبى وصححه الألباني في «صحيح الجامع» .

أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار ، وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلابد أن يرفع عنه الشر ؛ فلهذا قال ذو النون : ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الانبياء : ٨٧] .

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد : ١٩] وقوله : ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** ﴾[هود : ٢-٣] وقوله : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [هود : ٥٠] إلى قوله : ﴿ **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** ﴾ [هود : ٥٢] وقوله : ﴿ **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** ﴾ [فصلت : ٦] .

وخاتمة المجلس : « **سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك** »[1] إن كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه ، وإن كان مجلس لغو كانت كفارة له . وقد روى أيضاً أنها تقال في آخر الوضوء بعد أن يقال : «**أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين** »[2] .

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار ؛ فإنّ صدره الشهادتان اللتان هما أصلا الدين وجماعُه ؛ فإنّ جميع الدين داخل في الشهادتين إذ مضمونهما أن

---

(١) أبو داود (٤٨٥٧ - ٤٨٥٨ - ٤٨٥٩) ، والترمذي (٣٤٣٣) وقال : حسن غريب صحيح .
(٢) الترمذي (٥٥) وضعفه (بهذا التمام) ، والشطر الأول في صحيح مسلم (٢٣٤) .

لا نعبد إلا الله ، وأن نطيع رسوله ، والدين كله داخل فى هذا فى عبادة الله وطاعة رسوله ، وكل ما يجب أو يستحب داخل فى طاعة الله ورسوله .

وقد روى أنه يقول : « **سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك** »[1] وهذا كفارة المجلس ، فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء ، وكذلك كان النبى ﷺ يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح أنه كان يقول في آخر صلاته : « **اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت** »[2] وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد ؛ لأن الدعاء مأمور به فى آخر الصلاة ، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ؛ بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فإن تقديم التوحيد أفضل .

[م / ١٠ / ٢٦١ - ٢٦٣] .

* مجلس فى « الحمد والتوحيد والاستغفار »

المقصود هنا أن النبى ﷺ كان يجمع بين « الحمد » الذى هو رأس الشكر ، وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول « **ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد** » ، ثم يقول « **اللهم طهرنى بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس** »[3] كما رواه مسلم فى الصحيح[4] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ - إذا

---

(١) أبو داود (٤٨٥٧ - ٤٨٥٨ - ٤٨٥٩) ، والترمذى (٣٤٣٣) وقال : حسن غريب صحيح .
(٢) مسلم (٧٧١) من حديث على بن أبى طالب .
(٣) تقدم فى القسم الثانى من الكتاب ص ٢٤ .
(٤) رقم (٤٧٧) .

رفع رأسه من الركوع – قال : «**اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» .

وروى مسلم أيضاً عن عبدالله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ – إذا رفع رأسه من الركوع قال : **سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ**»[1] .

وقد روى مسلم فى صحيحه[2] أيضاً عن النبى ﷺ انه كان يقول : «**اللهم لك الحمد**» وقال : «**وملء الأرض ، وملء ما بينهما**» .

ولم يذكر فى بعض الروايات ؛ لأن السموات والأرض قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل فى ذلك الهواء وغيره ، فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه ، فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء .

وكذا قال فى القرآن ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الحديد : ٤] ولم يقل : وما بينهما ، كما يقول ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ** ﴾ [السجدة : ٤] .

فتارة يذكر قوله ﴿ **وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ فيما خلقه فى ستة أيام ، وتارة لا يذكره وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل فى لفظ

---

(١) رقم (٤٧٦) .

(٢) رقم (٤٧٨) من حديث ابن عباس .

﴿ **السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ولهذا كان النبى ﷺ تارة يقول : **«ملء السموات وملء الأرض»** ولا يقول : **«وما بينهما»** وتارة يقول : **«وما بينهما»** وفيها كلها **«وملء ما شئت من شىء بعد»** وفى رواية أبى سعيد : **«أحق ما قال العبد»** إلى آخره . وفى رواية ابن أبى أوفى الدعاء بالطهارة من الذنوب .

ففى هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار ، فإن ربنا غفور شكور فالحمد بإزاء النعمة ، والاستغفار بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء : ٧٩] .

ففى سيد الاستغفار **«أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى»** [١] وفى حديث أبى سعيد **«الحمد رأس الشكر ، والتوحيد»** [٢] كما جمع بينهما فى أم القرآن ، فأولها تحميد ، وأوسطها توحيد ، وآخرها دعاء ، وكما فى قوله ﴿ **هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [غافر : ٦٥] .

وفى حديث الموطأ [٣] **«أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شىء قدير»** .

«من قالها كتب الله له ألف حسنة . وحط عنه ألف سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه ، ومن قال فى يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده . حطت خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر» [٤] .

---

(١) البخارى (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس .

(٢) «ضعيف الجامع» (٢٧٩٠) من حديث ابن عمرو بلفظ **«الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لا يحمده»** وعزاه لعبد الرزاق والبيهقى فى الشعب .

(٣) (١٨٨/١) مرسلاً والترمذى (٣٥٨٥) وقال : غريب وسيأتى فى «توحيد الدعاء» ص ٣٧ .

(٤) البخارى (٣٢٩٣) ، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبى هريرة .

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة ، وفيها : التوحيد والتحميد . فقوله : «**لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له**» توحيد . وقوله : «**له الملك وله الحمد**» تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، في مواضع مثل حديث كفارة المجلس «**سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك** »[1] فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لغط كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر ، كانت كالطابع له . وفي حديث أيضاً أن هذا يقال عقب الوضوء[1] .

ففي الحديث الصحيح في مسلم[1] وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله أنه قال : قال رسول الله ﷺ «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء** » وفي حديث آخر أنه يقول : «**سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**»[1] .

وقد روى عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات[2] .

روى ابن جرير عن مجاهد انه قال: «اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، فأنت خير الراحمين ، لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي ، فتب عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم»

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء ، وخاتمة الوضوء فيها التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

---

(١) تقدم تخريج هذه الأحاديث في المجلس السابق ص ٣١ .

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٨١/١) .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ، فإنه لا يأتى بالحسنات إلا هو .

والاستغفار : من ذنوب النفس ، التى منها تأتى السيئات .

وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد ، والاستغفار فى غير موضع كقوله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] وفى قوله ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٢-٣] وفى قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت : ٦] .

وفى حديث رواه ابن أبى عاصم وغيره **«يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»** (١)

و **«لا إله إلا الله»** تقتضى الإخلاص والتوكل . والإخلاص : [يقتضى] الشكر ، فهى أفضل الكلام ، وهى أعلى شعب الإيمان ، كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ ، أنه قال **«الإيمان بضع وستون** - أو بضع وسبعون - **شعبة ، أعلاها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان»** (٢) .

فـ **«لا إله إلا الله»** هى قطب رحى الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله .

والكتب المنزلة : مجموعة فى قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة :٥] وهى معنى **« لا إله إلا الله »** ، و **« لا حول ولا قوة إلا بالله »** هى من معنى **« لا إله إلا الله»** ، و **«الحمد لله»** فى معناها ، و **«سبحان الله والله أكبر»** من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال . [م ١٤/ ٤١٥ - ٤٢١] .

---

(١) تقدم فى المجلس السابق ص ٢٩ .

(٢) البخارى (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبى هريرة .

فعلى العبد أن يعبد الله مخلصاً له الدين ، ويدعوه مخلصاً له ، لا يسقط هذا عنه بحال ، ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد ، وهم أهل « لا إله إلا الله » .

فهذا حق الله على كل عبد من عباده ، كما فى الصحيحين من حديث معاذ أن النبى ﷺ قال له : «**يا معاذ ! أتدرى ما حق الله على عباده ؟** » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : «**حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا**» الحديث[1] .

فلا ينجوَنَّ من عذاب الله إلا من أخلص لله دينه وعبادته ، ودعاه مخلصاً له الدين ، ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته وعبادة غيره ، كفرعون وأمثاله ، فهو أسوأ حالا من المشرك ؛ فلابد من عبادة الله وحده ، وهذا واجب على كل أحد ، فلا يسقط عن أحد البتة ، وهو الإسلام العام الذى لا يقبل الله غيره [١٤ / ٤٧٦ - ٤٧٧]

مجلس فى « توحيد الدعاء » :

قال النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « **دعوة أخى ذى النون ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾** [الانبياء : ٨٧] **ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته** »[2] .

سماها دعوة لأنها تتضمن نوعى الدعاء ؛ فقوله : **﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ ﴾** اعتراف بتوحيد الإلهية . وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعى الدعاء ، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا إله إلا هو .

وقوله : **﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾** اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب ، وتارة يسأل بصيغة الخبر ، إما بوصف حاله ، وإما بوصف حال المسؤول ، وإما بوصف الحالين ،

---

(١) تقدم في «حقيقة التوحيد» ص ٢٨ .

(٢) الترمذى (٣٥٠٥) ، ورواه أيضا أحمد (١ / ١٧٠) ، والحاكم (١ / ٥٠٥) وصححه ووافقه الذهبى .

كقول نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] فهذا ليس صيغة طلب ، وإنما هو إخبار عن الله أنه إنْ لم يغفر له ويرحمه خسر .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير ، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه .

وقد روى الترمذى وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « **من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين** »[(١)] رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ورواه مالك بن الحويرث وقال : « **من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين** » وأظن البيهقى رواه مرفوعا بهذا اللفظ[(٢)] .

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله : « **أفضل الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير** »[(٣)] فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبى الصلت يمدح ابن جدعان

---

(١) الترمذى (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد وقال : حسن غريب وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٦٤٣٥) .

(٢) عزاه العراقى فى «تخريج الإحياء» (٢٩٦/١) إلى البخارى فى التاريخ والبزار والبيهقى فى الشعب، وقال : فيه صفوان بن أبى الصفا ، ذكره ابن حبان فى الضعفاء وفى الثقات . أ . هـ . ورواه أبونعيم فى «الحلية» من حديث حذيفة (٣١٣/٧) ، وفى سنده عبدالرحمن بن واقد أبو مسلم: ضعيف (الميزان ٣/ ٣١٠)

(٣) مالك فى «الموطأ» (١٨٨/١) بإسناد مرسل والترمذى (٣٥٨٥) وضعفه بأبى إبراهيم محمد بن أبى حميد الأنصارى المدنى ، فقال : وليس بالقوى عند أهل الحديث . أ هـ وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١١٠٢) .

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إنَّ شيمتك الحِباءُ
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

قال : فهذا مخلوق يخاطب مخلوقا ، فكيف بالخالق تعالى !

[م ١٠/٢٤٣ – ٢٤٥]

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] أخبر سبحانه أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، فهذا إخبار عن ربوبيته لهم ، وإعطائه سؤلهم ، وإجابة دعائهم ؛ فإنهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ، وإن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر ، وفساقاً أو عصاة ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس : ١٢] ونظائره في القرآن كثيرة .

ثم أمرهم بأمرين فقال : ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

فالأول : أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة .

والثاني : الإيمان بربوبيته وألوهيته ، وأنه ربهم وإلههم .

ولهذا قيل : إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد ، وعن كمال الطاعة ؛ لأنه عقب آية الدعاء بقوله : ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي** ﴾ [البقرة : ١٨٦] والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته ، وأما إجابة دعائه وإعطاء سؤاله فقد يكون منفعة،وقد يكون مضرة ، قال تعالى : ﴿ **وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً** ﴾ [الإسراء : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُم ﴾ [يونس : ١١] .

وقال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال : ٣٢] .

وقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الانفال : ١٩] .

وقال : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الاعراف : ٥٥]
وقال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾
[الأعراف ١٧٥-١٧٦] .

وقال : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] .

وقال النبى ﷺ لما دخل على أهل جابر فقال : « **لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون** »[1] . [م ١٤/ ٣٣ - ٣٤]

مجلس فى « الهداية إلى الاستقامة » :

قال شيخ الإسلام فى قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] .

كل عبد مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء ، وهو هداية الصراط المستقيم، فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية ، ولا وصول إلى السعادة إلا به ، فمن

(١) مسلم (٩٢٠) وفيه أنه دخل على أبى سلمة عندما مات .

فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين

وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهدى الله ، فمن يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

والمقصود هنا أن كل عبد مفتقر دائماً إلى حصول هذه الهداية ... والصراط المستقيم قد فُسِّر بالقرآن ، والإسلام ، وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته ، بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإذا انقطع رزقه مات ، والموت لابد منه ، فإن كان من أهل الهداية كان سعيداً ، وإن كان بعد الموت ، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة فى حقه ، وكذلك النصر إذا قدِّر أنه قُهِر وغُلبِ حتى قُتِل ، فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه .

فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق ، بل لا نسبة بينهما ، فلهذا كان هذا الدعاء هو المفروض عليهم .

وأيضاً فإن الدعاء يتضمن الرزق والنصر ؛ لأنه إذا هُدىَ الصراطَ المستقيمَ كان من المتقين ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق ٢-٣] وكان ممن ينصر الله ورسوله ، ومن نصر الله نصره ، وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون . [ج ١/٩٨ - ١٠٠] .

والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء ؛ فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية ، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهذه الآية مما بين فساد مذهب القدرية .

وأما سؤال من يقول : فقد هداهم فلا حاجة بهم إلى السؤال ، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها ؛ كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب ، وما أمر الله به؛ فإن ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أن يفعل العبد فى كل وقت ما أمر به فى ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا يفعل ما نهى عنه ، وهذا يحتاج فى كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به فى ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور .

فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد فى وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدى به فى ذلك الصراط المستقيم .

نعم ! حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ، والرسول حق ، ودين الإسلام حق ، وذلك حق ؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه أن لم يحصل له هدى مفصل فى كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التى يحار فيها أكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم .

والإنسان خلق ظلوما جهولا ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل فى محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافى جهله ، وعدل ينافى ظلمه .

فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح ١-٢] فإذا كان هذه حاله فى آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره .

و ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قد فسر بالقرآن ، وبالإسلام ، وطريق العبودية ،

وكل هذا حق . فهو موصوف بهذا وبغيره .

فالقرآن مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ، ونواهٍ وأخبار وقصص وغير ذلك، إن لم يهد الله العبدَ إليها فهو جاهل بها ضال عنها .

وكذلك الإسلام وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك العبادة وما اشتملت عليه .

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه ؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه ، فإذا انقطع رزقه مات – والموت لابد منه – فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده ، وكان الموت موصلا إلى السعادة الأبدية .

وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حق قتل ، فإنه يموت شهيداً وكان القتل من تمام النعمة .

فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق ؛ بل لا نسبة بينهما ؛ لأنه إذا هدى كان من المتقين ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب** ﴾ [الطلاق ٢–٣] وكان ممن ينصر الله ورسوله ، ومن نصر الله نصره الله ، وكان من جند الله ، وهم الغالبون ؛ ولهذا كان هذا الدعاءِ هو المفروض.

وأيضاً فإنه يتضمن الرزق والنصر ؛ لأنه إذا هدى ، ثم أمر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدى التام أعظم ما يحصل به الرزق والنصر .

فتبين أن هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ، وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها ، وأن فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع ، فإذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم .

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً . [م ١٤ / ٣٧ – ٤٠]

أنه يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه .

وهذا هو حقيقة التوحيد الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فقد فنى مِنْ قلبه التألُّه لغير الله ، وبقى فى قلبه تأله الله وحده .

وفنى مِنْ قلبه حبٌّ غير الله ، وخشية غير الله ، والتوكل على غير الله ، وبقى فى قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله .

وهذا الفناء يجامع البقاء ، فيتخلى القلب عن عبادة غير الله مع تحلى القلب بعبادة الله وحده ، كما قال ﷺ لرجل : « **قل : أسلمت لله وتخليت** »[1] وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفى مع الإثبات ؛ نفى إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحده ، فإنه ليس فى الوجود إله إلا الله ، ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله ، فيجب أن يكون هذا ثابتاً فى القلب ؛ فلا يكون فى القلب مَنْ يألَهُه القلبُ ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده ؛ إذ كان ليس ثَـمَّ إله إلا الله وحده .

وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبود سواه ولمن عبدهم ، قال تعالى عن الخليل عليه السلام : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٦-٢٨] .

وقال : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء : ٧٥-٧٧] .

---

(١) لم أجده .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

[م ١٣/١٩٩ - ٢٠١]

١- موعظة فى « القلوب »

جعل الله القلوبَ ثلاثة أقسام :

قاسية ، وذات مرض ، ومؤمنة مخبتة ؛ وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافا ، وإذعانا ، أو لا تكون يابسة جامدة .

فالأول : هو القاسى وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ، ولا يكتب فيه الإيمان ، ولا يرتسم فيه العلم ؛ لأن ذلك يستدعى محلاً ليِّناً قابلا .

والثانى : لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال . فالثانى هو الذى فيه مرض ، والأول هو القوى اللين .

وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلا ، فإما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوى ولا تبطش ، أو تبطش بعنف ، فذلك مثل القلب القاسى .

أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها فذلك مثل الذى فيه مرض.

أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم ، فبالرحمة خرج عن القسوة ، وبالعلم خرج عن المرض ؛ فإن المرض من الشكوك والشبهات .

ولهذا وصف من عدا هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات . وفى قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٤] دليل على أن العلم يدل على الإيمان . [م ١٣ / ٢٧٠ - ٢٧١]

مجلس فى « إيمان القلب » :

الإيمان أصله الإيمان الذى فى القلب ولابد فيه من شيئين : تصديق بالقلب ، وإقراره ومعرفته . ويقال لهذا : قول القلب . قال الجنيد بن محمد : التوحيد : قول القلب . والتوكل : عمل القلب .

فلابد فيه من قول القلب ، وعمله : ثم قول البدن وعمله ، ولابد فيه من عمل القلب ، مثل حب الله ورسوله ، وخشية الله ، وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان .

ثم القلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة ، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : **« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب »** [1] .

وقال أبوهريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده .

وقول أبى هريرة تقريب ، وقول النبى ﷺ أحسن بياناً ، فإنَّ الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس ، فيكون فيهم صلاح مع فساده ، أو فساد مع صلاحه ؛ بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبى ﷺ : **« إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد »** .

---

(١) البخارى (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير .

فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علما وعملاً قلبياً ، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق ، كما قال أئمة أهل الحديث : قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له ، متى صَلُح الباطنُ صلح الظاهرُ ، وإذا فسد فسد ؛ لهذا قال مَن قال من الصحابة عن المصلى العابث : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

فلابد فى إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . [م ٧ / ١٨٦ - ١٨٧]

مجلس فى « واعظ القلب » :

فى الترمذى وغيره من حديث النواس عن النبى ﷺ أنه قال :

« ضرب الله مثلا صراطا مستقيماً ، وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداعٍ يدعو على رأس الصراط ، وداعٍ يدعو من فوق الصراط ، فالصراطُ المستقيم هو الإسلامُ ، والستورُ حدودُ الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أنْ يفتحَ بابا من تلك الأبواب ناداه المنادى - أو كما قال - **يا عبد الله ! لا تفتحه ، فإنك إنْ تفتحه تلجه . والداعى على رأسِ الصراط كتابُ الله . والداعى فوق الصراطِ واعظُ الله فى قلب كل مؤمن »** [1] .

فقد بيَّنَ أنَّ فى قلب كل مؤمن واعظاً ، والواعظ الأمر والنهى بترغيب وترهيب ؛ فهذا الأمر والنهى الذى يقع فى قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر ، كما قال تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور : ٣٥] قال بعض السلف فى الآية : هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر ، فإذا سمع بالأثر كان نوراً على نور .

(١) رواه أحمد (١٨٢/٤) ، والحاكم (٧٣/١) وقال : : صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه . وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٨٨٧) .

نور الإيمان الذى فى قلبه يطابق نور القرآن ، كما أنَّ الميزان العقلى يطابق الكتاب المنزل ؛ فإنَّ الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .

وقد يؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر . كما فى «الصحيحين» عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال : « **مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر** »[1] .

والإلهام فى القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب ، فقد يقع فى قلبه أنَّ هذا القول أرجح وأظهر وأصوب ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر ، وفى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال : « **قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن فى أمتى أحد فعُمر** »[2] والمحدَّث : الملْهَم المخاطَب .

وفى مثل هذا قول النبى ﷺ فى حديث وابصة : « **البر ما اطمأنَّتْ إليه النفس وسكن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى نفسك وإن أفتاك الناسُ وأفتوك** »[3] . وهو فى «السنن» وفى «صحيح مسلم» عن النواس عن النبى ﷺ قال : « **البِرُّ حسنُ الخلق والإثم ما حاك فى نفسك ، وكرِهْتَ أن يطلعَ عليه الناس** »[4] وقال ابن مسعود : الإثم حزاز القلوب .

[م ١٠/ ٤٧٤-٤٧٦].

---

(١) البخارى (٥٤٢٧) ، ومسلم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعرى .

(٢) البخارى (٣٦٨٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) .

(٣) أحمد (٤/٢٢٧ - ٢٢٨) من حديث وابصة ، (٤/١٩٤) من حديث أبى ثعلبة الخشنى .

(٤) مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح .

مجلس فى « رِقّ القلب وعبوديته » :

الرِّقُّ والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ، ولهذا يقال :

العبدُ حُرٌّ ما قَنِعْ والحر عَبْدٌ ما طَمِعْ

وقال القائل :

أطعتُ مطامعى فاستعبدتنى ولو أنى قنعتُ لكنتُ حراً

ويقال : الطمع غل فى العنق ، قَيْدٌ فى الرِّجْل ، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل .

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الطمع فقر ، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شىء استغنى عنه .

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه ؛ فإنَّ الأمر الذى ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به ، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه ، ولا إلى من يفعله ، وأما إذا طمع فى أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به ، فصار فقيراً إلى حصوله ؛ وإلى من يظن أنه سبب فى حصوله ، وهذا فى المال والجاه والصور وغير ذلك ، قال الخليل ﷺ : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] .

فالعبد لابد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله ، فقيراً إليه ، وإنْ طلبه من مخلوقٍ صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه [م ١٠/١٨١ - ١٨٢] .

والاستغناء : أن لا يرجو بقلبه أحداً ، فيستشرف إليه .

والاستعفاف : أن لا يسأل بلسانه أحداً . ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل ؟ فقال : قطع الاستشراف إلى الخلق - أى لا يكون فى قلبك أن أحداً يأتيك بشئ - فقيل له : فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : قول الخليل - لما قال له جبرائيل : هل لك من حاجة ؟ فقال - : أما إليك فلا [م١٠/٢٥٩] .

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة فى الأصل ، وإنما أبيحث للضرورة وفى النهى عنها أحاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد . كقوله ﷺ « **لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم** » [1] وقوله : « **من سأل الناس وله ما يغنيه جاءتْ مسألتُه يومَ القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحا فى وجهه** » [2] وقوله : « **لا تحل المسألة إلا لذى غرم مفظع ، أو دمع موجع ، أو فقر مدقع** » [3] هذا المعنى فى الصحيح [4] . وفيه أيضاً « **لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه** » [5] وقال : « **ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك** » [6] فكره أخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب ، وقال فى الحديث الصحيح : « **من يستغن يغنه الله ؛ ومن يستعفف يعفَّه الله ؛ ومن يتصبر يصبره الله ؛ وما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر** » [7] وأوصى خواص أصحابه أنْ لا يسألوا الناس شيئاً ، وفى « المسند » : أن أبابكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى إياه ؛ ويقول : إن خليلى « **أمرنى أن لا أسأل الناس شيئاً** » [8] . وفى « صحيح مسلم » وغيره عن عوف بن مالك « أن النبى ﷺ بايعه فى طائفة وأسرَّ إليهم كلمة خفية : « **أنْ لا تسألوا الناسَ شيئاً** » [9] ، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ؛ ولا يقول لأحد : ناولنى إياه » [م ١٠ / ١٨٣] .

---

(١) البخارى (١٤٧٤) ، ومسلم (١٠٤٠) من حديث ابن عمر .

(٢) أبو داود (١٦٢٦) ، والترمذى (٦٥٠) وقال : حسن ، والنسائى (٥/٩٧) ، وابن ماجة (١٨٤٠) من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) الترمذى (٦٥٣) من حديث حبشى بن جنادة ، وأبو داود (١٦٤١) من حديث أنس بن مالك .

(٤) مسلم (١٠٤٤) من حديث قبيصة بن مخارق .

(٥) البخارى (١٤٧٠) ، ومسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة .

(٦) البخارى (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر بن الخطاب .

(٧) البخارى (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٨) المسند (١/١١) بلفظ « إن حبيبى ... » .

(٩) مسلم (١٠٤٣) من حديث عوف بن مالك .

مجلس في « وَجَل القلب » :

إنّ وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه . وقد فسروا ﴿ وَجِلَتْ ﴾ [الأنفال : ٢] بفَرِقَتْ . وفي قراءة ابن مسعود : (إذا ذكر الله فرقت قلوبهم) . وهذا صحيح ؛ فإنَّ الوَجَلَ في اللغة هو : الخوف ، يقال : حمرة الخجل وصفرة الوجل ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُون** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] قالت عائشة : « يا رسول الله ! هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال : **لا يا ابنة الصديق ! هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أنْ لا يقبل منه** »[1] .

وقال السدي في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٢] هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات ٤٠-٤١] وقوله : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان** ﴾ [الرحمن : ٤٦] قال مجاهد وغيره من المفسرين : هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر مقامه بين يدي الله ؛ فيتركها خوفاً من الله .

إذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته ؛ فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور ، وترك المحظور . قال سهل بن عبد الله : ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُون** ﴾ [الأعراف : ١٥٤] فأخبر أنَّ الهدى والرحمة للذين يرهبون الله .

قال مجاهد وإبراهيم : هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب . رواه ابن أبي الدنيا ، عن ابن الجعد ، عن شعبة ، عن منصور ، عنهما ،

---

(١) أحمد (٦ / ٢٠٥) ، والترمذي (٣١٧٥) .

في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] . وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٥] . وهم «المؤمنون» وهم «المتقون» المذكورون في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١-٢] كما قال في آية البر : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] . وهؤلاء هم المتبعون للكتاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] . وإذا لم يضل فهو متبع مهتد ، وإذا لم يشق فهو مرحوم . وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم ، وأهل الهدى ليسوا ضالين فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله ، مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب [م ٧/ ١٩ - ٢١] .

مجلس في « القلب المنيب والعشق » :

القلب المنيب إلى الله ، الخائف منه ، فيه صارفان يصرفانه عن العشق ، **أحدهما** : إنابته إلى الله ، ومحبته له ، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء ، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه .

والثاني : خوفه من الله ، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه ، وكل من أحب شيئا - بعشق أو غير عشق - فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه، إذا كان يزاحمه وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب ، فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأخوف عنده من كل شيء ؛ لم يحصل معه عشق ، ولا مزاحمة إلا عند غفلة ، أو عند ضعف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ، فإن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية .

فكلما فعل العبد الطاعة محبةً لله وخوفاً منه ، وترك المعصية حباً له وخوفاً منه ؛ قوى حبه له وخوفه منه ، فيزيل ما فى القلب من محبة غيره ، ومخافة غيره ...

وليتخذ ورداً من الأذكار فى النهار ، ووقت النوم ، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف ، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ، ويكتب الإيمان فى قلبه .

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنةً وظاهرةً فإنها عمود الدين ، وليكن هِجِّيراه [1] « لا حول ولا قوة إلا بالله » فإنها بها تُحمل الأثقال ، وتكابد الأهوال ، وينال رفيع الأحوال .

ولا يسأم من الدعاء والطلب ، فإن العبد «يستجاب له ما لم يعجل ، فيقول : قد دعوت ، ودعوت فلم يستجب لى» [2] ، «وليعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً» [3] ، ولم ينل أحد شيئاً من ختم الخير ، نبى فمن دونه إلا بالصبر .

والحمد لله رب العالمين [م ١٠ / ١٣٥] .

وميل النفس إلى النساء عام فى طبع جميع بنى آدم ، وقد يبتلى كثير منهم بالميل إلى الذكران كالمردان ، وإن لم يكن يفعل الفاحشة الكبرى كان بما هو دون ذلك من المباشرة ، وإن لم تكن كان بالنظر ، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه فى طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهذا الجهاد ،

---

(١) أى : يولع بها ويكثر من ترديدها .

(٢) البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة .

(٣) أحمد (١ / ٣٠٧) .

وليس هو أمراً حرمه على نفسه فيكون فى طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ، فتكون المجاهدة للنفس فى طاعة الله ورسوله .

وفى حديث أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا «**من عشق فعف، وكتم ، وصبر ، ثم مات، فهو شهيد**»[1] وأبو يحيى فى حديثه نظر .

لكن المعنى الذى ذكر فيه دل عليه الكتاب والسنة ، فإن الله أمره بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعف عن كل ما حرم الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد ورجل ، والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله فإن هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

أحدهما : أن يكتم بثه وألمه ، ولا يشكو إلى غير الله ، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ، لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد ، بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين :

فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتى ، وهذا حسن .

وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا إلى غيره لما فى الشكوى من الراحة ، كما أن المصاب يشكو مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ، ولا الاستعانة على معصية ، فهذا ينقص صبره ؛ لكن لا يأثم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذى يتسخط .

والثانى : أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ؛ لما فى ذلك من إظهار السوء والفاحشة ، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتتيمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك

---

(١) رواه الخطيب في «التاريخ» (٥/١٥٦-٢٦٢) وهو موضوع ،واتفق الأئمة المتقدمون على تضعيف هذا الحديث . قاله الألباني «الضعيفة» (٤٠٩) .

داعيا له إلى الفعل ، والنساء متى رأَيْنَ البهائم تنزوا الذكور منها على الإناث ملْنَ إلى الباءة والمجامعة .

والرجل إذا سمع من يفعل مع المردان والنساء ، أو رأى ذلك ، أو تخيله فى نفسه دعاه ذلك إلى الفعل ، وإذا ذكر الإنسان طعاما اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غير ذلك مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حن إليه .

فكلما كان فى نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب إلى ذلك المحبوب المطلوب ، إما إلى وصفه وإما إلى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل فى النفس .

قد يحصل التخيل بالسماع والرؤية أو التفكر فى بعض الأمور المتعلقة به ، فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى تخيلة أخرى ، فتحركت داعية المحبة ، سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس إلى الحج إذا ذكر الحجاز ، وتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلى ونحو ذلك ؛ لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهبا إلى المحبوب ، فصار ذكرها يذكر المحبوب ، وكذلك إذا ذكر رسول الله ﷺ تذكر به ، وتحركت محبته .

فالمبتلى بالفاحشة والعشق . إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك ؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة ؛ فإذا تصورت جنس ذلك تحركت إلى المحبوب ، ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة .

[م ١٤ / ٢٠٧ – ٢١٠]

مجلس فى « القلب والنية »

« النية » هى مما يخفيه الإنسان في نفسه . فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب . كما قال

تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون ٤ :٦] وقال : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾

[النساء : ١٤٢] .

وفى حديث أبى هريرة الصحيح [١] فى الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار فى الذى تعلم وعلم ليقال : عالم قارىء ، والذى قاتل ليقال : جرىء وشجاع، والذى تصدق ليقال : جواد وكريم .

فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم؛ لم يقصدوا بذلك وجه الله ، وإن كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ، فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما فى الحديث : « **من طلب العلم ليباهى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، فله من عمله النار** » [٢] وفى الحديث الآخر : « **من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ، لا يطلبه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة ، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام** » [٣] .

وفى الجملة القلب هو الأصل ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك الأعضاء ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده .

وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أنَّ النبى ﷺ قال : « **إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب** » [٤] فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده ، فيكون هذا مما أبداه ، لا مما أخفاه .

---

(١) مسلم (١٩٠٥) من حديث أبى هريرة .

(٢) ابن ماجة (٢٥٣) من حديث ابن عمر ، وحسنه الألبانى .

(٣) أبو داود (٣٦٦٤) ، وابن ماجة (٢٥٢) من حديث أبى هريرة .

(٤) تقدم فى « إيمان القلب » ص ٤٥ .

وكلما أوجبه الله على العباد لابد أن يجب على القلب ، فإنه الأصل وإن وجب على غيره تبعا

فالعبد المأمور المنهى إنما يعلم بالأمر والنهى قلبه ، وإنما يقصد الطاعة والامتثال القلب

والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به ، كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر ، وقصد الامتثال كان أول المعصية منه ؛ بل كان هو العاصي وغيره تبع له فى ذلك ؛ ولهذا قال فى حق الشقى : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١-٣٢] الآيات ، وقال فى حق السعداء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الكهف : ١٠٧] فى غير موضع. [م ١٤ / ١١٣ - ١١٤]

٢- موعظة فى « تزكية النفس » :

قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا ﴾ [النور : ٣٠] الآية . وقال : ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُم ﴾ [النور : ٢٨] وقال : ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت : ٧] وقال : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ [عبس : ٧] .

[وقال موسى لفرعون : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات :١٨-١٩] وقال : ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٦]] (*) .

وأصل الزكاة الزيادة فى الخير ، ومنه يقال : زكا الزرع ، وزكا المال ، إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر ، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل ، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ، ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر ، [ومن لم يترك الشر لا يكون زاكيا البتة ، فإن الشر] (*) فإنه يدنس النفس ويدسيها .

(*) ما بين المعكوفتين زيادة من رسالة «تزكية النفس» التى حققها د. محمد بن سعيد القحطاني معتمداً فيها على مخطوط لها من استانبول .

قال الزجاج ﴿ **دساها** ﴾ [الشمس : ١٠] جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء : دساها ، لأن البخيل يخفى نفسه ومنزله وماله ، قال ابن قتيبة : أى أخفاها بالفجور والمعصية فالفاجر دس نفسه : أى قمعها وخباها ، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها ، واللئام تنزل الأطراف والوديان .

فالبر والتقوى يبسط النفس ، ويشرح الصدر ، بحيث يجد الإنسان فى نفسه اتساعا وبسطاً عما كان عليه قبل ذلك ؛ فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره .

والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها ، بحيث يجد البخيل فى نفسه أنه ضيق .

وقد بين النبى ﷺ ذلك فى الحديث الصحيح فقال : « **مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما ، فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه ، حتى تغشى أنامله ، وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها** – وأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعه فى جيبه « **فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع** »[1] أخرجاه [وهذا لفظ مسلم] (*) .

وإخفاء المنزل وإظهاره تبعاً لذلك قال تعالى : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ [النحل : ٥٩] . فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها فى بدنه بعضها فى بعض ، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل [٢] ، والنفس البَرَّة التَّقيَّة النَّقيَّة التى قد زكاها صاحبها

---

(١) البخارى (٥٧٩٧) ومسلم (١٠٢١) من حديث أبى هريرة .

(*) ما بين المعكوفتين زيادة من رسالة «تزكية النفس» التى حققها د. محمد بن سعيد القحطاني معتمداً فيها على مخطوط لها من استانبول .

(٢) أحمد (٤/٢٨٧) من حديث البراء بن عازب .

فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقْتُ الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من فى السقاء [1] ، وكالشعرة من العجين . قال ابن عباس : إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياءً فى الوجه ، وقوةً فى البدن ، وسعةً فى الرزق، ومحبةً فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمةً فى القلب ، وسواداً فى الوجه ، وَوَهناً فى البدن ، وضيقاً فى الرزق ، وبغضةً فى قلوب الخلق . قال تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّب ﴾ الآية [الاعراف : ٥٨] . وهذا مثل البخيل والمنفق . قال : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ ﴾ الآية [الانعام : ١٢٥] . وقال : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧] الآية .

وقال له فى سياق الرمى بالفاحشة وذم مَنْ أحب إظهارها فى المؤمنين ، والمتكلم بما لا يعلم : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور : ٢١] الآية . فبيَّن أنَّ الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم ﴾ [النور : ٣٠] الآية .

وذلك أنَّ ترك السيئات هو من أعمال النفس ، فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروهٌ فعلُها ، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها ، إن كان مصدقاً لكتاب ربه مؤمناً بما جاء عن نبيه ﷺ ، ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة، فتزكو بذلك أيضاً ، بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها (تتدنس) [2] وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل [م ١٠/٦٢٨ - ٦٣١] .

إن الزكاة تستلزم الطهارة ؛ لأن معناها معنى الطهارة . قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم ﴾ [التوبة : ١٠٣] من الشر ﴿ وتزكيهم ﴾ بالخير [فتذهب عنهم السيئات فيصيرون طاهرين منها ، وتزكو أنفسهم حينئذ

---

(١) أحمد (٤/٢٨٧) من حديث البراء بن عازب .

(٢) قد سقطت تلك الكلمة من نسخة د/ القحطاني ، فلتستدرك هناك ص ٤٦ .

بالعمل الصالح مع زوال الذنوب] (*) قال ﷺ : « **اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج [اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب]** (*) »[1] كان يدعو به فى الاستفتاح وفى الاعتدال من الركوع ، [وكذلك في الحديث الصحيح أنه ﷺ صلى على ميت فقال : «**اللهم اغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**»] (**) .

والغسل بهذه الأمور يوجب تبريد المغسول بها ، والبرد يعطى قوة وصلابة ، وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين ، ولهذا كان دمع السرور بارداً ، ودمع الحزن حاراً ؛ لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها [وذلك يسخن الباطن] (*) ، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن ؛ [ولهذا يقال : برد قلبى] (*) .

فسأل النبى ﷺ أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذى أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب .

وقوله : « **بالثلج والبرد والماء البارد** » تمثيل بما فيه من هذا الجنس ، وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك ، كما يقال : أذقنا برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك، ولما قضى أبوقتادة دين المدين قال ﷺ : « **الآن بردت جلدته** »[2] ويقال : برد اليقين ، وحرارة الشك ، ويقال : هذا الأمر يثلج له الصدر ، إذا كان حقاً يعرفه القلب ويفرح به ، حتى يصير فى مثل برد الثلج . ومرض النفس : إما شبهة وإما شهوة أو غضب ، والثلاثة توجب السخونة . ويقال لمن

---

(١) مسلم (٤٧٦) من حديث ابن أبى أوفى .

(٢) أحمد (٣٠٣/٣) ، والدارقطنى (٣٠٦٥) من حديث جابر .

(*) زيادة من نسخة القحطاني .

(**) زيادة من نسخة القحطاني . والحديث رواه مسلم (٩٦٣) .

نال مطلوبه : برد قلبه [ولمن لم يحصل مطلوبه ما في هذا ما يبرد قلبه] (*) ، فإن الطالب فيه حرارة [حركة] (*) الطلب [وإذا وجد المطلوب سكن واطمأن وبرد قلبه] (*) .

وقوله : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٣] دليل على أنَّ عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة ، فإنه قاله بعد قوله : ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا** ﴾ [التوبة : ١٠٢] الآية. فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال فى سياق قوله : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا** ﴾ [النور : ٣٠] الآيات: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ** ﴾ [النور : ٣١] الآية . فأمرهم جميعاً بالتوبة فى سياق ما ذكره [من الأمر بغض البصر وحفظ الفرج] (*) لأنه لا يسلم أحد [من ذنب] (*) من هذا الجنس ، كما فى الصحيح [عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبوهريرة عن النبي ﷺ قال] (*) : « **إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا** » (١) الحديث . وكذلك فى الصحيح : أن قوله : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شىء إلا الجماع ، ثم ندم [وجاء تائباً] (*) فنزلت (٢) .

ويحتاج المسلم فى ذلك إلى أنْ يخاف الله ، وينهى النفس عن الهوى ، [كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾] (*) ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه ، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله ، وعملاً صالحاً . وثبت عنه أنه قال : « **المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله** » (٣) فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها ، وهو إلى جهاد نفسه

---

(١) البخارى (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) من حديث أبى هريرة .
(٢) البخارى (٤٦٨٧) ، ومسلم (٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود .
(٣) أحمد (٦ / ٢١) ، والترمذى (١٦٢١) وابن حبان (٢٥) ، وقال الترمذى : حسن صحيح .
(*) زيادة من نسخة القحطاني .

أحوج ، فإنَّ هذا فرض عين وذاك فرض كفاية ، والصبر فى هذا من أفضل الأعمال ، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد ، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد ، كما قال : « والمهاجر من هجر السيئات »[1] . [م ١٠/ ٦٣٤ - ٦٣٦]

٣- موعظة فى « حلاوة الإيمان »

فى الحديث الصحيح : « أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبى ﷺ قال : فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه ؟ قال : لا ، قال : وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه أحد »[2] .

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب ، بل يحبه ويرضاه ، فإن له من الحلاوة فى القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه ، والناس متفاوتون فى ذوقه ، والفرح والسرور الذى فى القلب له من البشاشة ما هو بحسبه ، وإذا خالطت القلب لم يسخطه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [الرعد : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن ، والاستبشار هو الفرح والسرور ؛ وذلك لما يجدونه فى قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله .

---

(١) أحمد (٦/ ٢١) ، وابن ماجة (٣٩٣٤) ، وابن حبان (٢٥) .
وفى البخارى (١٠) « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » من حديث عبدالله بن عمرو .
(٢) البخارى (٧) .

واللذة أبداً تتبع المحبة فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به ؛ فالذوق هو إدراك المحبوب . اللذة الظاهرة كالآكل مثلاً : حال الإنسان فيها أنه يشتهى الطعام ويحبه ، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته ، وكذلك النكاح وأمثال ذلك .

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم ، وليس فى الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى ، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه ، فإن الرسول – عليه الصلاة والسلام – إنما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ، ويتبع لأجل الله . كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] وفى الحديث « **أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى** »[١] وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٤] وقال النبى ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** »[٢] وفى حديث الترمذى وغيره « **من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان** »[٣] وقال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فالذين آمنوا أشد حباً لله من كل محب لمحبوبه .

[م ١٠/٦٤٨ – ٦٤٩] .

لا ريب أن الحب مشروط بشعور المحبوب ، كما أن الشهوة مشروطة بشعور المشتهى ؛ لكن الشعور المشروط فى اللذة غير الشعور المشروط فى المحبة ، فهذا

---

(١) الترمذى (٣٧٨٩) وقال : حسن غريب .
ورواه الحاكم (٣/١٥٠) وصححه ، وفى إسنادهما عبدالله بن سليمان النوفلى : فيه جهالة .
(٢) البخارى (١٥) ، ومسلم (٤٤) من حديث أنس .
(٣) أبو داود (٤٦٨١) ، والترمذى (٢٥٢١) وقال : حسن . وأحمد (٣/٤٤٠) .

الثانى يسمى إدراكا وذوقاً ونيلاً ووجداً ووصالاً ، ونحو ذلك مما يعبر به عن إدراك المحبوب ، سواء كان بالباطن أو الظاهر ، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة أمر يحسه الحى باطناً وظاهراً .

وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح « **ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً** »[1] وفى « الصحيحين » عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار** »[2] .

فبين ﷺ أنَّ ذوق طَعم الإيمان لمن رضى بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وأنَّ وَجْدَ حلاوة الإيمان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما ، ومن كان يحب شخصاً لله لا لغيره ، ومن كان يكره ضد الإيمان ، كما يكره أن يلقى فى النار ؛ فهذا الحب للإيمان . والكراهية للكفر استلزم حلاوة الإيمان ، كما استلزم الرضا المتقدم ذوق طعم الإيمان ، وهذا هو اللذة ، وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة فى القلب ، ولا نفس الحب الحاصل فى القلب ؛ بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له ، وهى أمور متلازمة ، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق ، وإلا فمن أحب شيئاً ولم يذق منه شيئاً لم يجد لذة ، كالذى يشتهى الطعام ولم يذق منه شيئاً ، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة ، كمن ذاق مالا يريده ، فإذا اجتمع حب الشىء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك .

---

(١) مسلم (٣٤) من حديث العباس .

(٢) البخارى (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديث أنس .

وإن حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم ، فالذى يبغض الذنب ولا يفعله لا يندم ، والذى لا يبغضه لا يندم على فعله ، فإذا فعله وعرف أنَّ هذا مما يبغضه ويضره ندم على فعله إياه . وفى « المسند » عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : « الندم توبة » [1] [م ١٠/٣٢٦ – ٣٢٨] .

٤- موعظة فى « الافتقار إلى الله »

العبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به ، كما هو مفتقر إلى عبادته فلابد أن يشهد دائماً فقره إلى الله ، وحاجته فى أن يكون معبوداً له ، وأن يكون معيناً له ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه [م ١/٥٦] .

والمؤمنُ يجد نفسه محتاجةً إلى اللهِ فى تحصيلِ مطالبه ، ويَجدُ فى قلبه محبةً لله غير هذا ، فهو محتاجٌ إلى اللهِ من جهةِ أنَّه ربُّه ، ومن جهة أنه إلهُهُ قال تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] فلابد أن يكون العبد عابداً لله ، ولابد أن يكون مستعيناً به ؛ ولهذا كان هذا فرضاً على كل مسلم أنْ يقولَه فى صلاته .

وهذه الكلمة بين العبد وبين الرب ، وقد روى عن الحسن البصرى – رحمه الله – أنَّ الله أنزل مائةَ كتابٍ وأربعةَ كتبٍ ، جمع سرَّها فى الأربعةِ ، وجمع سرَّ الأربعةِ فى القرآن ، وجمع سرَّ القرآنِ فى الفاتحة ، وجمع سرَّ الفاتحةِ فى هاتَيْنِ الكلمتيْنِ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ولهذا ثنَّاها اللهُ فى كتابه فى غير موضع من القرآن كقوله : ﴿ **اعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] وقوله : ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [الشورى : ١٠] وقوله : ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ﴾

---

(١) أحمد (١ / ٣٧٦) ، وابن ماجة (٤٢٥٢) ، والحاكم (٤ / ٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبى .

[الرعد : ٣٠] وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق ٢ : ٣].

[المنهاج ٥ / ٣٩٣ – ٣٩٤] .

العبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له ؛ كان أقرب إليه وأعزَّ له ، وأعظم لقدره ، فأعظم الخلق أعظمهم عبودية لله .

وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره . . .

فأعظم ما يكون العبد قدراً ، وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم ؛ كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم – ولو فى شربة ماء – نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك به .

ولهذا قال حاتم الأصم – لما سئل : فيم السلامة من الناس ؟ قال –: أن يكون شيئك لهم مبذولاً ، وتكون من شيئهم آيساً [م ١/ ٣٩] .

إن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذى خلقه ورزقه وبصره وهداه ، وأسبغ عليه نعمه ، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله . . .

ونظيره فى الدنيا مَنْ نزل به بلاء عظيم ، أو فاقة شديدة ، أو خوف مقلق ، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التى قصدها أولاً ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه .

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم ، ومن ذكر ما وعدهم فى الآخرة من صنوف النعيم واللذات ، وليس عند المخلوق شىء من هذا [م ١/٢٧ - ٢٨] .

واعلم أن فقر العبد إلى الله ... ليس له نظير فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ، وبينهما فروق كثيرة .

فإن حقيقة العبد قلبُه وروحُه ، وهى لا صلاح لها إلا بإلاهها الله الذى لا إله إلا هو ، فلا تطمئن فى الدنيا إلا بذكره ، وهى كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولابد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه .

ولو حصل للعبد لذّات أو سرور بغير الله ، فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا فى وقت وفى بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذى يتنعم به والتذ (*) غيرَ منعم له ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ، ووجوده عنده ، ويضره ذلك .

وأما إلهه فلابد منه فى كل حال ، وكل وقت ، وأينما كان فهو معه ، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ﷺ : ﴿ لا أُحبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : ٧٦] وكان أعظم آية فى القرآن الكريم ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]
[م ١/٢٤ - ٢٥] .

وكل مَن علّق قلبَه بالمخلوقات أنْ ينصروه أو يرزقوه أو أنْ يهدوه خضع قلبه لهم ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ؛ وإن كان فى الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم ، متصرفاً بهم ، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر ، فالرجل إذا تعلّقَ قلبُه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو فى الظاهر سيدها لأنه زوجها ، وفى الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لاسيما إذا دَرَتْ بفقره إليها ؛ وعشقه لها ، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم فى عبده المقهور ، الذى لا يستطيع

---

(١) كذا فى الفتاوى ، ولعل الصواب : « ويلتذ » .

الخلاص منه ، بل أعظم ، فإنَّ أَسْرَ القلبِ أعظمُ مِن أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإنَّ مَنْ اسْتُعْبِدَ بدنُه واسْتُرِقَّ لا يبالى إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص . وأما إذا كان القلب الذى هو الملك رقيقاً مستعبداً مُتَيَّماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية لما استعبد القلب .

وعبودية القلب وأسره هى التى يترتب عليها الثواب والعقاب ؛ فإنَّ المسلم لو أسره كافر ؛ أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران[1] ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك ، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك ، ولو كان فى الظاهر ملك الناس .

فالحريةُ حريةُ القلبِ ، والعبوديةُ عبوديةُ القلبِ ، كما أنَّ الغنى غنى النفس قال النبى ﷺ : **« ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس »**[2] وهذا لعمرى إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة ، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة أو صبى ، فهذا هو العذاب الذى لا يدان فيه . وهؤلاء من أعظم الناس عذابا وأقلهم ثوابا ، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها ، مستعبداً لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ، ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه ، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين . كما قيل :

سُكْرانِ سُكْرُ هوى ، وسكرُ مُدَامَةٍ
ومتى إفاقةُ مَنْ به سُكْرانِ

---

(١) رواه البخارى (٩٧) ، ومسلم (١٥٤) من حديث أبى موسى .

(٢) البخارى (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبى هريرة .

وقيل :

قالوا : جُننتَ بمَنْ تهوى ، فقلتُ لهم

العِشْقُ أعظمُ مما بالمجانينِ

العِشْقُ لا يستفيقُ الدهرَ صاحبهُ

وإنما يَصْـرَعُ المجنونَ فى الحينِ

ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قطُّ أحلى من ذلك ، ولا ألذ ولا أطيب ، والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفا من مكروه ، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلبُ عنه بالحب الصالح ، أو بالخوف من الضرر . قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله .

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها ، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواه بلا علاج ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر ، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله ، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه ، فإن ذكر الله عبادة لله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها . وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع .

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك ، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ [الشمس ٩-١٠] .

وقال تعالى : ﴿ **قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ [الأعلى : ١٤-١٥] .

وقال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور : ٢١] فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس ، وبيَّنَ أن ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك [م ١٠ / ١٨٥ - ١٨٩]

وكما أنَّ الإنسان مأمور بشهود القدر وتوحيد الربوبية عند المصائب ، فهو مأمور بذلك عندما ينعم الله عليه من فعل الطاعات ، فيشهد قبل فعلها حاجته وفقره إلى إعانة الله له ، وتحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

ويدعو بالأدعية التي فيها طلب إعانة الله له على فعل الطاعات ، كقوله ﷺ : « **أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[1] وقوله : « **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ويا مصرف القلوب ، اصرف قلبي إلى طاعتك** »[2] ، وطاعة رسولك وقوله : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] وقوله : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] ومثل قوله : « **اللهم ألهمني رشدي ، واكفني شر نفسي** »[3] .

ورأس هذه الأدعية وأفضلها قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] فهذا الدعاء أفضل الأدعية وأوجبها على الخلق ، فإنه يجمع صلاح العبد في الدين

---

(١) أبو داود (١٥٢٢) ، والنسائي (٢/٥٢) .

(٢) الترمذي (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة وقال : حسن . ورواه الحاكم من حديث أنس (١/٥٢٦) ، ومن حديث النواس بن سمعان (١/٥٢٥) وصححهما ، ومن حديث جابر (٢/٢٨٨) وصححه على شرط مسلم .

(٣) رواه الترمذي (٣٤٨٣) وقال : غريب . ونقل عنه النووي في «الأذكار» (ص ٣٨٥) : حسن .

والدنيا والآخرة .

وكذلك الدعاء بالتوبة فإنه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة ، وكذلك دعاء الاستخارة فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه وتيسيره له ، وكذلك الدعاء الذى كان النبى ﷺ يدعو به إذا قام من الليل ، وهو فى الصحيح : « **اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط المستقيم** »[(١)] .

وكذلك الدعاء الذى فيه : « **اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا** » [(٢)] وكذلك الدعاء باليقين والعافية كما فى حديث أبى بكر[(٣)] ، وكذلك قوله : اللهم أصلح لى قلبى ونيتى . ومثل قول الخليل وإسماعيل ﴿ **وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

وهذه أدعية كثيرة تتضمن افتقار العبد إلى الله فى أنْ يعطيه الإيمان والعمل الصالح ، فهذا افتقار واستعانة بالله قبل حصول المطلوب ، فإذا حصل بدعاء أو بغير دعاء شهد إنعام الله فيه وكان فى مقام الشكر والعبودية لله ، وأنَّ هذا حصل بفضله وإحسانه لا بحول العبد وقوته [م ٨/ ٣٣٠ - ٣٣١] .

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذى لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ، ولا يوالى إلا من والاه الله ، ولا

---

(١) مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة .

(٢) الترمذى (٣٥٠٢) من حديث ابن عمر ، وقال : حسن غريب .

(٣) أحمد (٣/١) ، وابن حبان (٢٤٢٠) .

يعادى إلا من عاداه الله ، ولا يحب إلا الله ، ولا يبغض شيئاً إلا لله ، ولا يعطى إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات ، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك .

[م١٠ / ١٩٨]

إذا ظهر أنَّ العبدَ وكلٌّ مخلوق فقيرٌ إلى الله ، محتاج إليه ، ليس فقيراً إلى سواه ؛ فليس هو مستغنياً بنفسه ولا بغير ربه ؛ فإن ذلك الغير فقير أيضاً محتاج إلى الله .

ومن المأثور عن أبى يزيد – رحمه الله – أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وعن الشيخ أبى عبد الله القرشى أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم ؛ فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولا وإلا فليس له من نفسه شيء ، قال سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢]

[م١٤ / ٢٩]

وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتى له لا وجود له بدون ذلك ، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات ، وبذلك هى أنها لخالقها وفاطرها ؛ إذ لا قيام لها بدونه ، وإنما يفترق الناس فى شهود هذا الفقر ، والاضطرار ، وعزوبه عن قلوبهم .

وأيضاً فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذى يحبه حبَّ إجلال وتعظيم ، فهو غاية مطلوبه ومراده ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا ، وأصل الحركات الحب ، والذى يستحق المحبة لذاته هو الله .

فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك ، وحبه فساد ، وإنما الحب الصالح

النافع حب الله والحب لله .

والإنسان فقير إلى الله من جهة عبادته له ، ومن جهة استعانته به للاستسلام والانقياد لمن أنت إليه فقير وهو ربك وإلهك .

وهذا العلم والعمل أمر فطرى ضرورى ؛ فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها، وتذل لمن افتقرت إليه ، وغناه من الصمدية التى انفرد بها ، فإنه ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الرحمن : ٢٩] وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والإنابة إليه .

فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه وكماله-ولذته وفرحه وسروره فى أن يعبد ربه وينيب إليه ، وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه ؛ فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته ، قائمة بقدرته وكلمته ، محتاجة إليه ، فقيرة إليه ، مسلمة له طوعاً وكرهاً .

فإذا شهد العبد ذلك ، وأسلم له ، وخضع فقد آمن بربوبيته ، ورأى حاجته وفقره إليه صار سائلا له متوكلا عليه مستعيناً به إما بحاله أو بقاله ، بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته [م ١٤ / ٣١ – ٣٢]

فالعبد كما أنه فقير إلى الله دائماً فى إعانته وإجابة دعوته وإعطاء سؤاله وقضاء حوائجه ، فهو فقير إليه فى أنْ يعلم ما يصلحه وما هو الذى يقصده ويريده وهذا هو الأمر والنهى والشريعة ، وإلا فإذا قضيت حاجته التى طلبها وأرادها ولم تكن مصلحة له كان ذلك ضرراً عليه ، وإن كان فى الحال له فيه لذة ومنفعة ، فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجحة .

وهذا قد عرفه اللهُ عبادهَ برسله وكتبه : علَّمُوهم ، وزكُّوهم ، وأمروهم بما ينفعهم ، ونهوهم عما يضرهم ، وبينوا لهم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو الله وحده لا شريك له ،كما أنه هو ربهم وخالقهم .

وأنهم إن تركوا عبادته أو أشركوا به غيره خسروا خسراناً مبيناً ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، وكان ما أتوه من قوة ومعرفة وجاه ومال وغير ذلك - وإن كانوا فيه فقراء إلى الله مستعينين به عليه ، مقرين بربوبيته - فإنه ضرر عليهم ، ولهم بئس المصير وسوء الدار .

وهذا هو الذى تعلق به الأمر الدينى الشرعى والإرادة الدينية الشرعية ، كما تعلق بالأول الأمر الكونى القدرى والإرادة الكونية القدرية .

والله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالإعانة والهداية ؛ فإنه بيَّن لهم هداهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وأعانهم على اتباع ذلك علماً وعملاً .

كما مَنَّ عليهم وعلى سائر الخلق ؛ بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم ، ومَنَّ على أكثر الخلق بأن عرفهم ربوبيته لهم وحاجتهم إليه ، وأعطاهم سؤلهم ، وأجاب دعاءهم ، قال تعالى : ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن : ٢٩] فكل أهل السموات والأرض يسألونه ، فصارت الدرجات أربعة :

قوم لم يعبدوه ولم يستعينوه ، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم . وقوم استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه .

وقوم طلبوا عبادته وطاعته ، ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه .

والصنف الرابع الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقد بين سبحانه ما خص به المؤمنين فى قوله : ﴿ **حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون** ﴾ [الحجرات : ٧]

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على أفضل المرسلين محمد ، وآله وصحبه أجمعين . [م ١٤ / ٣٥ - ٣٦]

٥- موعظة فى « المحبة »

القلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا يلتذ ، ولا يسر ، ولا يطيب ، ولا يسكن، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه ، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين** ﴾ [الفاتحة : ٥] فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئاً لذاته إلا الله ، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة « لا إله إلا الله » ، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة وكان فيه من النقص والعيب ، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك .

ولو سعى فى هذا المطلوب ولم يكن مستعيناً بالله متوكلا عليه مفتقراً إليه فى حصوله لم يحصل له ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه ، فهو إلهه لا إله له غيره ، وهو ربه لا رب له سواه [م ١٠/١٩٤ – ١٩٥] .

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى في الترمذى « **مَنْ أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان** » [1] فإنه إذا كان حبه لله ، وبغضه لله – وهما عمل قلبه –

---

(١) تقدم فى موعظة « حلاوة الإيمان » ص ٦٢ .

وعطاؤه لله ، ومنعه لله – وهما عمل بدنه – دل على كمال محبته لله ، و [دل] ذلك على كمال الإيمان ؛ وذلك ان كمال الإيمان ان يكون الدين كله لله ، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له ، والعبادة تتضمن كمال الحب ، وكمال الذل ، والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ، ولابد لكل حي من حب وبغض، فإذا كانت محبته لمن يحبه الله ، وبغضه لمن يبغضه الله ، دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه ، لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف ، بما يعارضه من شهوات النفس وأهوائها ، الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس ، فإذا كان حبه لله ، وعطاؤه لله ، ومنعه لله ؛ دل على كمال الإيمان باطناً وظاهراً .

وأصل الشرك فى المشركين – الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً – إنما هو اتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] ومن كان حبه لله وبغضه لله ، لا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطى إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه [١] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « **يقول الله : مَنْ عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ،فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه** » . فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل ، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض ، أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه ، وصار أحدهم يدرك بالله ، ويتحرك بالله ، بحيث إن الله يجيب مسألته، ويعيذه مما استعاذ منه

[م ١٠/ ٧٥٤ – ٧٥٥].

(١) رقم (٦٥٠٢) .

وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين ، فيريد الإحسان إليهم ، وهم يحبونه فيريدون عبادته وطاعته .

وقد ثبت فى الصحيحين ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** »[1] .

وما من مؤمن إلا وهو يجد فى قلبه للرسول من المحبة مالا يجد لغيره ، حتى إنه إذا سمع محبوباً له – من أقاربه وأصدقائه – يسب الرسول ، هان عليه عداوته ومهاجرته ، بل وقتله ، لحب الرسول ، وإن لم يفعل ذلك لم يكن مؤمنا .

قال تعالى : ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] بل قد قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] فتوعد من كان الأهل والمال أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله .

وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى فى النار** »[2] .

---

(١) تقدم فى « حلاوة الإيمان » ص ٦٢ .

(٢) تقدم في « حلاوة الإيمان» ص ٦٣ .

فوجود حلاوة الإيمان فى القلب لا تكون من محبة العوض الذى لم يحصل بعد ، بل الفاعل الذى لا يعمل إلا للكراء لا يجد حال العمل إلا التعب والمشقة وما يؤلمه ، فلو كان لا معنى لمحبة الله ورسوله إلا محبة ما سيصير إليه العبد من الأجر ، لم يكن هنا حلاوة إيمان يجدها العبد فى قلبه وهو فى دار التكليف والامتحان ، وهذا خلاف الشرع وخلاف الفطرة التى فطر الله عليها قلوب عباده .

فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « **كل مولود يولد على الفطرة** »[1] .

وفى صحيح مسلم عنه أنه قال : « **يقول الله تعالى : خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزِّل به سلطاناً** »[2] .

فالله فطر عباده على الحنيفية ملة إبراهيم ، وأصلها محبة الله وحده ، فما من فطرة لم تفسد إلا وهى تجد فيها محبة الله تعالى .

لكن قد تفسد الفطرة إما لِكِبْرٍ وغرض فاسد ، كما فى فرعون ، وإما بأن يُشرك معه غيره فى المحبة .

كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، فإن في قلوبهم محبة الله ، لا يماثله فيها غيره ، ولهذا كان الرب محمودا حمدا مطلقا على كل ما فعله ، وحمدا خاصا على إحسانه إلى الحامد ، فهذا حمد الشكر ، والأول حمده على كل ما فعله .

---

(١) البخارى (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار .

كما قال ﴿ الْحمدُ للهِ الَّذي خلقَ السّموات والأرْضَ وجعلَ الظُّلُمات والنُّور ﴾ [الانعام ١] ، ﴿ الْحمْدُ للهِ فاطرِ السّموات والأرْضِ ﴾ الآية [سورة فاطر ١]

والحمد ضد الذم ، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته

والذم خبر بمساوىء المذموم مقرون ببغضه ، فلا يكون حمدٌ لمحمود إلا مع محبته ، ولا يكون ذم لمذموم إلا مع بغضه ، وهو سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة .

وأول ما نطق به آدم : الحمد لله رب العالمين ، وأول ما سمع من ربه : يرحمك ربك [١] ، وآخر دعوى أهل الجنة ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

«وأول من يُدعى إلى الجنة الحمَّادون» [٢] ، ونبينا محمد ﷺ صاحب لواء الحمد ، آدم فمن دونه تحت لوائه [٣] ، وهو صاحب المقام المحمود ، الذى يغبطه به الأولون والآخرون [٤] .

فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود ، وهو سبحانه المعبود المحمود .

وأول نصف الفاتحة الذى للرب حمده ، وآخره عبادته . أوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وآخره : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة : ٥] . كما ثبت فى حديث القسمة : **«يقول الله تبارك وتعالى : قسمت الصلاة بينى وبين**

---

(١) انظر «البداية والنهاية» (١/٧٨) وعزاه الحافظ ابن كثير للبزار وقال : وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه . أ. هـ .

(٢) أبونعيم في «الحلية» (٥/٦٩) من حديث ابن عباس .

(٣) أحمد (١/٣٨١) عن ابن عباس ، الترمذي (٣١٤٨ - ٣٦١٥) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (٤٣٠٨) عن أبي سعيد .

(٤) البخارى (٤٧١٨) من حديث ابن عمر . (٤٧١٩) من حديث جابر

عبدى نصفين ، فنصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، يقول العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيقول الله : حمدنى عبدى . يقول العبد : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فيقول الله تعالى : أثنى علىّ عبدى . يقول العبد : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فيقول الله تبارك وتعالى : مجدنى عبدى . يقول العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فيقول الله تعالى : هذه الآية بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل . يقول العبد : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة . يقول الله تعالى : هؤلاء لعبدى ، ولعبدى ما سأل » رواه مسلم فى صحيحه [1] . وقال النبى ﷺ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » [2] .

فجمع بين التوحيد والتحميد ، كما قال تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة غافر : ٦٥] .

وكان ابن عباس يقول : إذا قلتَ : لا إله إلا الله ، فقل : الحمد لله رب العالمين . يتأول هذه الآية .

وفى سنن ابن ماجه وغيره عن النبى ﷺ انه قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد » [3] .

وفى السنن عنه ﷺ انه قال : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » [4] .

وقال أيضا : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء » [5] .

---

(١) رقم (٣٩٥) من حديث أبى هريرة .

(٢) تقدم فى « توحيد الدعاء » ص ٣٧ .

(٣) ابن ماجة (٣٨٠٠) ، وكذلك الترمذى (٣٣٨٣) وقال : حسن غريب .

(٤) سيأتى فى «الحمد» ص ١١٣ .

(٥) أبو داود (٤٨٤١) ، والترمذى (١١٠٦) وقال : حسن صحيح غريب .

فلابد فى الخطب من الحمد لله ومن توحيده ؛ ولهذا كانت الخطب فى الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين .

وكذلك التشهد فى آخر الصلاة ، أوله ثناء على الله ، وآخره الشهادتان ، ولا يكون الثناء إلا على محبوب ، ولا التأله إلا لمحبوب ، وقد بسطنا الكلام فى حقائق هذه الكلمات فى مواضع متعددة .

وإذا كان العباد يحمدونه ويثنون عليه ويحبونه ، فهو سبحانه أحق بحمد نفسه والثناء على نفسه والمحبة لنفسه ، كما قال أفضل الخلق : « **لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك** »[1] . فلا ثناء من مثنٍ أعظم من ثناء الرب على نفسه ، ولا ثناء إلا بحبٍ ، ولا حب من محبوب لمحبوب أعظم من محبة الرب لنفسه ، وكل ما يحبه من عباده فهو تابع لحبه لنفسه ، فهو يحب المقسطين والمحسنين والصابرين والمؤمنين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويفرح بتوبة التائبين ، كل ذلك تبعا لمحبته لنفسه ؛ فإن المؤمن إذا كان يحب ما يحبه من المخلوقات لله ، فيكون حبه للرسول والصالحين تبعا لحبه لله ، فكيف الرب تعالى فيما يحبه من مخلوقاته ؟!

إنما يحبه تبعا لحبه لنفسه ، وخَلَق المخلوقات لحكمته التى يحبها ، فما خلق شيئا إلا لحكمة . وهو سبحانه قد قال : ﴿ **أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَه** ﴾ [سورة السجدة : ٧] وقال : ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾

[سورة النمل : ٨٨] .

وليس فى أسمائه الحسنى إلا اسم يُمدح به ، ولهذا كانت كلها حسنى، والحسنى خلاف السوأى ، فكلها حسنة ، والحسن محبوب ممدوح .

[المنهاج ٥ / ٤٠١ – ٤٠٩]

---

(١) مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة .

مجلس فى « موالاة المحبوب »

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :

وإنما عَبْدُ الله مَنْ يرضيه ما يرضى الله ؛ ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله تعالى ، وهذا هو الذى استكمل الإيمان ، كما فى الحديث « **مَنْ أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان** » (١) وقال : « **أوثق عرى الإيمان الحب فى الله ، والبغض فى الله** » (٢) .

وفى الصحيح عنه ﷺ : «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار**» (٣) فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه ، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر ، فكان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب من تماما محبة المحبوب ، فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١] فإن الرسول يأمر بما يحب الله ، وينهى عما يبغضه الله ، ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به ؛ فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى به فيما فعل ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله ، فجعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ؛ والجهاد فى سبيله .

---

(١) تقدم قريباً ص ٦٢ .

(٢) أحمد (٢٨٦/٤) وابن أبى شيبة فى «الإيمان» (١١٠) من حديث البراء بن عازب (انظر «صحيح الجامع») .

(٣) متفق عليه ، راجع موعظة «حلاوة الإيمان» ص ٦٣.

وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [التوبة : ٢٤] فتوعد مَنْ كان أهلهُ ومالهُ أحبَّ إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد ، بل قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « **والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** »[1] . وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب قال له : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : « **لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك** » ؛ فقال : فوالله ، لأنت أحب إلىَّ من نفسى فقال « **الآن يا عمر** »[2] .

فحقيقة المحبة لا تتم إلا **بموالاة المحبوب** ، وهو موافقته فى حب ما يحب وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان . ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب فكلما قويت المحبة فى القلب طلب القلب فعل المحبوبات ، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة فى حصول المحبوبات ، فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها ، وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبى ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا** »[3] . وقال « **إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم** » . قالوا : وهم بالمدينة ؟! قال : « **وهم بالمدينة ، حبسهم العذر** »[4] [١٠ / ١٩٠ - ١٩٢] .

---

(١) البخارى (١٤) من حديث أبى هريرة ، و (١٥) من حديث أنس ، وهو لفظه .
(٢) البخارى (٦٦٣٢) .
(٣) مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبى هريرة . (٤) مسلم (١٩١١) من حديث جابر

وهذا حبٌ مَنْ عرف ما يستحق أن يحب لأجله ، وما من وجه من الوجوه التى يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته ؛ إذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال ، ويستحق أن يحمد على السراء والضراء ، وهذا أعلى وأكمل وهذا حب الخاصة .

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك ، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون .

وهم السابقون كما فى « صحيح مسلم »[1] عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : مَرَّ النبى ﷺ بجبل يقال له : جمدان ، فقال : « **سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون** » قالوا : يا رسول الله ، مَنْ المفردون ؟ قال : «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات** » . وفى رواية أخرى قال : « **المستهترون بذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً** » .

والمستهتر بذكر الله : يتولع به ، وينعم به ، كَلِفٌ لا يفتر منه .

[م ١٠ / ٨٥] .

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه ، وهو سبحانه أعظم شيء بغضا لمن لم يتبع رسوله . فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتّبع رسوله لا محالة ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

---

(١) رقم (٢٦٧٦) .
والرواية الأخرى عند الترمذي (٣٥٩٦) وقال : حسن غريب .

والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك ، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ، ولم تكن الذنوب عن نفاق ، كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب : حديث حمار الذي كان يشرب الخمر ، وكان النبي ﷺ يقيم عليه الحد ، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي ﷺ : «**لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله**[1]» . وفيه دلالة على أنا منهيون عن لعنة أحد بعينه ، وإن كان مذنبا ، إذا كان يحب الله ورسوله .

فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات ، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات ، والمعاصي تنقض المحبة ، وهذا معنى قول الشبلي لما سئل عن المحبة فقال ما غنَّت به جارية فلان :

تعصى الإله وانت تزعم حبه   هذا محال في القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن أحب مطيع

وهذا كقوله ﷺ : «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»[2] .

والمقصود هنا أن نفرق بين الحب في الله ولله ، الذى هو داخل فى محبة الله ، وهو من محبته ، وبين الحب لغير الله الذى فيه شرك في المحبة لله ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [سورة البقرة ١٦٥] ، فإن هؤلاء يشركون بربهم في الحب ، عادلون به ، جاعلون له أندادا . وأولئك أخلصوا دينهم لله ، فكان حبهم الذى هو أصل دينهم كله لله، وهذا هو الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وأمر بالجهاد عليه .

---

(١) البخارى (٦٧٨٠) .
(٢) البخارى (٤٤٧٧) ، ومسلم (٥٧) .

كما قال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا** ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقد عُلم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ، ثم إن اتخاذ الأنداد هو من أعظم الذنوب ، كما في الصحيح [(١)] عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : **أن تجعل لله نداً وهو خلقك** . قلت : ثم أى ؟ قال : **ثم أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك** . قلت : ثم أى ؟ قال : **ثم أن تزاني بحليلة جارك**» ، فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨] ، فدعاء إلهٍ آخر مع الله هو اتخاذ ندٍّ من دون الله ، يحبه كحب الله ، إذ أصل العبادة المحبة .

والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع ، فالمحبوبات المعظَّمة لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد ، كقوله ﷺ في الحديث الصحيح : «**تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعطِيَ رضي ، وإن مُنع سخط**» [(٢)] .

فسمَّى هؤلاء الأربعة الذين إن أعطوا رضوا ، وإن مُنعوا سخطوا — لأنها محبتهم ومرادهم — عباداً لها ، حيث قال : عبدالدرهم ، وعبد الدينار وعبد القطيفة ، وعبد الخميصة .

---

(١) البخاري (٤٧٦١) ، ومسلم (٨٦) .
(٢) البخاري (٢٨٨٦) .

فإذا كان الإنسان مشغوفاً بمحبة بعض المخلوقات لغير الله - الذى يرضيه وجوده ، ويسخطه عدمه - كان فيه من التعبد بقدر ذلك .

[جامع الرسائل ٢ /٢٥٨ : ٢٦١] .

ومحبة الله ورسوله على درجتين : واجبة وهى درجة المقتصدين ، ومستحبة وهي درجة السابقين .

فالأولى تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، بحيث لا يحب شيئا يبغضه ، كما قال تعالى : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَه** ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] ، وذلك يقتضى محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ، وبغض ما حرَّمه الله تعالى ، وذلك واجب ، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضى وجود ما أوجبه كما تقتضى عدم الأشياء التى نهى الله عنها ، وذلك مستلزم لبغضها التام .

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ، قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم** ﴾

[سورة محمد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ** ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ - ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَه** ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة . وهذه حال المقرَّبين الذين قرَّبهم الله إليه . فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة تقتضى بغض ما أبغضه الله ورسوله ، كما فى سائر أنواع المحبة ، فإنها توجب

بغض الضد ، عُلم أن الجهاد من موجب محبة الله ورسوله ، فإن مقصود الجهاد تحصيل ما أحبه الله ، ودفع ما أبغضه الله .

فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد ، فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعا ، كان فيه نفاق ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾

[سورة الحجرات : ١٥] .

وفى صحيح مسلم [١] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق** » .

وكذلك جمع بينهما في قوله تعالى : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [سورة التوبة ١٩-٢٢] ، فقرنه بالمحبة في الآيتين من قوله : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، وفى قوله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] . فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾ ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**

---

(١) مسلم (١٩١٠) .

رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، فوصفهم بالذلة والرحمة لأوليائه إخوانهم ، والعزة والشدة على أعدائه أعدائهم ، وأنهم يجاهدون في سبيل الله .
[جامع الرسائل ٢ / ٢٧٨ : ٢٨٠] .

٦- موعظة في « الصبر »

قال شيخ الإسلام في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ [الإنسان : ١٢] لما كان في الصبر من حبس النفس ، والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن ، من التعب والنصب والحرارة ما فيه ؛ كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة ، والحرير الذي فيه اللين والنعومة ، والاتكاء الذي يتضمن الراحة ، والظلال المنافية للحر [ج ١ / ٧٣] (*)

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وقال : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ [الإنسان : ٢٤-٢٥] : لما كان لا سبيل إلى الصبر إلا بتعويض القلب بشيء هو أحب إليه من فوات ما يصبر على فوته ؛ أمره بأن يذكر ربه – سبحانه – بكرة وأصيلاً ، فإن ذكره أعظم العون على تحمل مشاق الصبر ، وأن يصبر لربه بالليل ، فيكون قيامه بالليل عوناً على ما هو بصدده بالنهار ، ومادة لقوته ظاهراً وباطناً ، ولنعيمه عاجلاً وآجلاً [ج ١ / ٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن ، والإحسان إلى الناس بالنفع والمال الذي هو الزكاة ، والصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب .

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية ، وإذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة ، عرف ما يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ، ودعائه وتلاوة كتابه ، وإخلاص الدين له ، والتوكل عليه .

(*) أشرت بالرمز (ج) إلى «جامع الرسائل» .

وفى الزكاة من الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع ، من نصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء حاجة المحتاج ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « **كل معروف صدقة** »[1] فيدخل فيه كل إحسان ، ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة . . .

وفى الصبر احتمال الأذى ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾

[سورة هود ٩-١١] .

وقال الحسن البصرى : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان[2] العرش : ألا ليقم مَن أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح [ج ١ /٨٣] .

مجلس فى « الصبر الجميل »

والصبر الجميل صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ [يوسف : ٨٦] مع قوله : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨] فالشكوى إلى الله لا تنافى الصبر الجميل ، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث وعليك التكلان » .
ومن دعاء النبى ﷺ : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، اللهم إلى مَنْ تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إنْ لم يكن بك**

(١) البخارى (٦٠٢١) من حديث جابر ، ومسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة .
(٢) داخله أو وسطه .

غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أنَّ عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أنْ ينزل بي سخطك ، أو يحل علي غضبك ، لك العتبى حتى ترضى » [1] .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ [يوسف : ٨٦] ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف . بخلاف الشكوى إلى المخلوق . قرىء على الإمام أحمد في مرض موته أنَّ طاووساً كره أنين المريض . وقال : إنه شكوى . فما أنَّ حتى مات . وذلك أنَّ المشتكي طالب بلسان الحال ، إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه ، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب** ﴾ [الشرح ٦ - ٧] وقال ﷺ لابن عباس : « **إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله** » [2] .

ولابد للإنسان من شيئين : طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور . فالأول : هو التقوى ، والثاني : هو الصبر [م ١٠ / ٦٦٦ - ٦٦٧] .

مجلس في « الصبر والشكر »

الصبر والشكر على ما يقدره الرب على عبده من السراء والضراء ، من النعم والمصائب ، من الحسنات التي يبلوه بها ، والسيئات ؛ فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر ، والنعم بالشكر ، ومن النعم ما ييسره له من أفعال الخير ، ومنها ما هي خارجة عن أفعاله ، فيشهد القدر عند فعله للطاعات وعند إنعام الله عليه فيشكره ويشهده عند المصائب فيصبر ، وأما عند ذنوبه فيكون مستغفراً تائباً

---

(١) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» إلى الطبراني من حديث عبدالله بن جعفر ، وضعفه الألباني في «ضعيفه» (١١٨٢) .

(٢) أحمد (١/٢٩٣) ، والترمذي (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح .

كما قال : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ [غافر : ٥٥] .

وأما من عكس هذا فشهد القدر عند ذنوبه ، وشهد فعله عند الحسنات فهو من أعظم المجرمين ، ومن شهد فعله فيهما فهو قدرى ، ومن شهد القدر فيهما ولم يعترف بالذنب ويستغفره فهو من جنس المشركين .

وأما المؤمن فيقول : أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، كما فى الحديث الصحيح الإلهى : « **يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمَنْ وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه** » (١) .

وكان نبينا ﷺ متبعاً ما أمر به من الصبر على أذى الخلق ، ففى « الصحيحين » (٢) عن عائشة قالت : « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له ، ولا دابة ، ولا شيئاً قط ؛ إلا أنْ يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شىء قطُّ فانتقم لنفسه ، إلا أنْ تُنْتَهَكَ محارمُ اللهِ ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله » .

وقال أنس : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله : لم لا فعلته ؟ وكان بعض أهله إذا عتبنى على شىء يقول : « **دعوه ، دعوه ، فلو قضى شىء لكان** » (٣) .

وفى « السنن » عن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه ذكر للنبى ﷺ قول بعض من آذاه ، فقال : « **دعنا منك ، فقد أوذى موسى بأكبر من هذا فصبر** » (٤) فكان يصبر على أذى الناس له من الكفار والمنافقين وأذى بعض

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر .
(٢) البخارى (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٨) .
(٣) البخارى (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) .
(٤) أحمد (٣٩٦/١) ، والترمذى (٣٨٩٦) وقال : غريب .

المؤمنين ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ [سورة الاحزاب : ٥٣] وكان يذكر : « **أن هذا مقدر** » [١] .

والمؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور ، ولذلك قال : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] فالتقوى فعل المأمور وترك المحظور ، والصبر على أذاهم ، ثم إنه حيث أباح المعاقبة قال : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ [النحل ١٣٦ - ١٣٧] .

فأخبر أنَّ صبره بالله ، فالله هو الذى يعينه عليه ، فإنَّ الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس ، لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله فى قوله : ﴿ **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ [المدثر : ٧] لكن هناك ذكره فى الجملة الطلبية الأمرية ؛ لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره ، وهنا كره فى الخبرية فقال ﴿ **وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [النحل : ١٣٧] فإنَّ الصبر وسائر الحوادث لا تقع إلا بالله ، ثم قد يكون ذلك ، وقد لا يكون ، فما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم . ولا يقال : واصبر بالله فإنَّ الصبر لا يكون إلا بالله ، لكن يقال: استعينوا بالله واصبروا فنستعين بالله على الصبر . [م ٨ / ٣٢٧-٣٢٩]

مجلس فى « الصبر وأنواعه »

الصبر عن المحرمات واجب ، وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها ، قال تعالى : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور : ٣٣] والاستعفاف هو ترك المنهى عنه . كما فى الحديث الصحيح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : « **من يستعفف يعفَّه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاءً خيراً**

---

(١) وفى صحيح مسلم (٢٦٥٥) من حديث ابن عمر «**كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس**» .

وأوسع من الصبر»[1] .

فالمستغنى لا يستشرف بقلبه ، والمستعفف هو الذى لا يسأل الناس بلسانه، والمتصبر هو الذى لا يتكلف الصبر ، فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله . وهذا كأنه فى سياق الصبر على الفاقة ، بأن يصبر على مرارة الحاجة ، لا يجزع مما ابتلى به من الفقر ، وهو الصبر فى البأساء والضراء . قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

والضراء : المرض . وهو الصبر على ما ابتلى به من حاجة ومرض وخوف . والصبر على ما ابتلى به باختياره كالجهاد ؛ فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذى يبتلى به بغير اختياره ولذلك إذا ابتلى بالعنت فى الجهاد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه فى بَلده ؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد . وكذلك لو ابتلى فى الجهاد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل . كما قد بسط هذا فى مواضع .

وكذلك ما يؤذى الإنسان به فى فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطلب العلم من المصائب ، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلى به بدون ذلك ، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات : من رئاسة ، وأخذ مال ، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك؛ فإنَّ أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما .

فإن فى العلم والإمارة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والحج والصوم والزكاة من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها ، ويعرض فى ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور ، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ، بخلاف حالها بدون القدرة ، فإن الصبر مع القدرة جهاد ، بل هو من أفضل الجهاد ، وأكمل من ثلاثة أوجه :

---

(١) متفق عليه . راجع « مجلس رق القلب » ص ٤٩ .

أحدهـا : أنّ الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب .

الثانى : أنّ ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك .

الثالث : أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر دينى ، كمن خرج لصلاة ، أو طلب علم ، أو جهاد فابتلى بما يميل إليه من ذلك ، فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور ، وترك المحظور ، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح ، ولهذا كان يونس بن عبيد يوصى بثلاث ، يقول : لا تدخل على سلطان — وإن قلت : آمره بطاعة الله — ولا تدخل على امرأة — وإن قلت : أعلمها كتاب الله — ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة — وإن قلت : أرد عليه .

فأمره بالاحتراز من أسباب الفتنة ، فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن ، ولا يسلم [م ١٠/ ٥٧٤ — ٥٧٧] .

مجلس فى « الابتلاء بالمصائب »

ما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب هى بمنزلة ما تصيب الجسم من الألم يصح بها الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة . كما قال النبى ﷺ « **ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه** »(1) وذلك تحقيق لقوله : ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ [النساء : ١٢٣] .

ومن لم يطهَّر فى هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤب صحيحاً ، وإلا احتاج أنْ يطهر منها فى الآخرة فيعذبه الله ، كالذى اجتمعت فيه أخلاطه ، ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها ، ولهذا جاء فى الأثر «إذا قالوا للمريض : اللهم ارحمه ، يقول الله : كيف أرحمه من شىء به

---

(1) البخارى (٥٦٤١ — ٥٦٤٢) ، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبى سعيد وأبى هريرة .

أرحمه ؟! » . وقال النبي ﷺ : « **المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها** »[1] .

وكما أنَّ [من] أمراض الجسم ما إذا مات الإنسان منه كان شهيداً ، كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب ، وكذلك الميت بغرق أو حرق أو هدم؛ فمن أمراض النفس ما إذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيداً ، كالجبان الذى يتقى الله ويصبر للقتال حتى يقتل ؛ فإن البخل والجبن من أمراض النفوس إن أطاعه أوجب له الألم ، وإن عصاه تألم كأمراض الجسم .
[م ١٠/١٤٧ – ١٤٨]

٧- موعظة في « التقوى »

التقوى أن يعمل الرجل بطاعة الله ، على نور من الله ، يرجو رحمة الله ، وأن يترك معصية الله على نور من الله ، يخاف عذاب الله .

ولا يتقرب ولى الله إلا بأداء فرائضه ، ثم بأداء نوافله قال تعالى : « **وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه** » كما جاء فى الحديث الصحيح الإلهى الذى رواه البخارى[2] [م ١٠ / ٤٣٣] .

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] روى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « **لا يا بنت الصديق** ،

---

(١) ثبت فى البخارى (٥٦٤٧) ومسلم (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود مرفوعاً : « **ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر** » .
وفى «المسند» (٤/٧٠) من حديث أسد بن كرز مرفوعاً : «**المريض تحات خطاياه كما يتحات ورق الشجر**» .
(٢) تقدم فى « المحبة » ص ٧٥ .

ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه »[1] .

وهذا لأن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] أى من الذين يتقونه فى العمل .

والتقوى فى العمل بشيئين : أحدهما : إخلاصه لله ، وهو أن يريد به وجه الله ، لا يشرك بعبادة ربه أحداً .

والثانى : أن يكون مما أمره الله به وأحبه ، فيكون موافقاً للشريعة ، لا من الدين الذى شرعه من لم يأذن الله له ، وهذا كما قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : ٢] قال : أخلصه وأصوبه .

وذلك أن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة .

فالسعيد يخاف فى أعماله أن لا يكون صادقاً فى إخلاصه الدين لله ، أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله ؛ ولهذا كان السلف يخافون النفاق عل أنفسهم ، فذكر البخارى عن أبى العالية [2] قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه .

لهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم : أنا مؤمن إن شاء الله ، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدى ، ويتوبون من ذلك [ج ١/٢٥٦ – ٢٥٧] .

---

(١) تقدم فى « وجل القلب » ص ٥٠.

(٢) كذا هنا ، والثابت فى الصحيح « وقال ابن أبى مليكة » [الإيمان – باب ٣٦] .

٨- موعظة فى « اليقين »

السعادة فى معاملة الخلق أن تعاملهم لله ، فترجو الله فيهم ، ولا ترجوهم فى الله ، وتخافه فيهم ، ولا تخافهم فى الله ، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله ، لا لمكافئتهم ، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله ، لا منهم ، كما جاء فى الأثر : ارج الله فى الناس ، ولا ترج الناس فى الله ، وخف الله فى الناس ، ولا تخف الناس فى الله .

أى : لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم ، ولا رجاء مدحهم ولا خوفا من ذمهم ، بل ارج الله ولا تخف فى الله فيما تأتى وما تذر ، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه ، وفى الحديث : « **إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، أو تذمهم على ما لم يؤتك الله** »[١] .

فإن اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما فى أيديهم من الدنيا ، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم ، فإرضاؤهم بسخطه إنما تكون خوفاً منهم ، ورجاء لهم ، وذلك من ضعف اليقين .

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك ، فالأمر فى ذلك إلى الله ، لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترحمهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، لكن من حمده الله فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم .

---

(١) أبو نعيم فى «الحلية» (٥/١٠٦) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٢٠٠٩) .

ولما قال بعض وفد بني تميم : يا محمد أعطني ، فإن حمدي زين ، وإن ذمي شين . قال رسول الله ﷺ : « **ذاك الله** » [1] .

وكتبت عائشة إلى معاوية – وروى أنها رفعته إلى النبي ﷺ – : « **من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً** » [2] هذا لفظ المرفوع ، ولفظ الموقوف : من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً – هذا لفظ المأثور عنها .

وهذا من أعظم الفقه في الدين ، والمرفوع أحق وأصدق ، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه ، وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، وهو كافٍ عبده ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق : ٢ – ٣] فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب .

وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة .

ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذي يعض على يده يقول : ﴿ **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً** ﴾ [الفرقان ٢٧ – ٢٨] .

وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً ، ويحصل في العاقبة ، فإن العاقبة للتقوى ، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم .

وهو سبحانه أعلم [م ١ / ٥١] .

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٨٨) من حديث الأقرع بن حابس .

(٢) الترمذي (٢٤١٤) وصحح الألباني المرفوع والموقوف في تخريج الطحاوية (٢٧٨) .

٩- موعظة فى قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

إن السيئات التى تصيب الإنسان – وهى مصائب الدنيا والآخرة – ليس لها سبب إلا ذنبه الذى هو من نفسه ؛ فانحصرت فى نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم ، فإنه لا تنحصر أسبابه ، لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله .

وعمله نفسه من إنعام الله عليه ، وهو سبحانه لا يجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له .

ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم ، فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، الذى لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما . فإنه « **من لا يشكر الناس لا يشكر الله** »[(١)] لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة التى لا يقدر عليها مخلوق، ونعمة المخلوق إنما هى منه أيضاً ، قال تعالى : **﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾** [النحل : ٥٣] وقال تعالى **﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾** [الجاثية : ١٣] وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

---

(١) الترمذى (١٩٥٤) عن أبى هريرة ، (١٩٥٥) عن أبى سعيد ، وقال عنهما : حسن صحيح . وبنحوه أحمد (٥/٢١١) وغيره ، وانظر : «الصحيحة» (٤١٦) .

فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق فى معصية الخالق كما قال تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** ﴾ [العنكبوت : ٨] وقال فى الآية الأخرى ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** ﴾ [لقمان : ١٥] .

وقال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « **على المرء المسلم السمع والطاعة فى عسره ويسره ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة** »[١] . وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **إنما الطاعة فى المعروف** »[٢] وقال « **من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه** »[٣] وقال « **لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق** »[٤] .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتى بها إلا الله ، فلا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، وأنه ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ [فاطر : ٢] صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر - الذى لا يستحقه غيره - صار علمه بأن الحسنات من الله يوجب له الصدق فى شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً ؛ لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل ، وما كان لعمله فيه مدخل ؛ فإن الله هو المنعم به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

---

(١) البخارى (٧١٤٤) ، ومسلم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر .

(٢) البخارى (٧١٤٥) ، ومسلم (١٨٤٠) من حديث على .

(٣) ابن ماجة (٢٨٦٣) وقال فى «الزوائد» : إسناد صحيح . وحسنه الألبانى .

(٤) بنحوه أحمد (٥/٦٦) ، (٤/٤٣٢) ، والحاكم (٣/٤٤٣) وصححه الألبانى .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه فى النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخافن عبد إلا ذنبه

[م ١٤ / ٣٣٩ - ٣٤١]

وقال شيخ الإسـلام :

قوله : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٧٩] الآية بعد قوله : ﴿ **كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٧٨] لو اقتصر على الجمع لأعرض العاصى عن ذم نفسه ، والتوبة من الذنب ، والاستعاذة من شره ، وقام بقلبه حجة إبليس ، فلم تزده إلا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالا حين قالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والإيمان بالقدر ، واللجاء إلى الله فى الهداية ، كما فى خطبته [(١)] ﷺ : « **الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره** » فيشكره ويستعينه على طاعته ، ويستغفره من معصيته ، ويحمده على إحسانه . ثم قال : « **ونعوذ بالله من شرور أنفسنا** » إلى آخره .

لما استغفر من المعاصى استعاذه من الذنوب التى لم تقع ، ثم قال : « **ومن سيئات أعمالنا** » أى ومن عقوباتها ، ثم قال : « **من يهد الله فلا مضل له** » إلخ . شهادة بأنه المتصرف فى خلقه ، ففيه إثبات القضاء الذى هو نظام التوحيد ، هذا كله مقدمة بين يدى الشهادتين ، فإنما يتحققان بحمد الله وإعانته ، واستغفاره واللجاء إليه ، والإيمان بأقداره ، فهذه الخطبة عقد نظام الإسلام والإيمان .

وكون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه :

---

(١) أبو داود (٢١١٨) ، والترمذى (١١٠٥) والنسائى (٦/٨٩) ، وابن ماجة (١٨٩٢) .

الأول : أن النعم تقع بلا كسب .

الثانى : أن عمل الحسنات من إحسان الله إلى عبده ، فخلق الحياة وأرسل الرسل وحبب إليهم الإيمان ، وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك ، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تُبْتَ فزال .

الثالث : أن الحسنة تضاعف .

الرابع : أن الحسنة يحبها ويرضاها ، فيحب أن ينعم ويحب أن يطاع ، ولهذا تادب العارفون فاضافوا النعم إليه والشر إلى محله ، كما قال إمام الحنفاء: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين** ﴾ [الشعراء : ٧٨] إلى قوله : ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين** ﴾ [الشعراء : ٨٠] .

الخامس : أن الحسنة مضافة إليه ؛ لأنه أحسن بها بكل اعتبار ، وأما السيئة فما قدرها إلا لحكمة .

السادس : أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة ؛ لأنها إما فعل مأمور أو ترك محظور ، والترك أمر وجودى ، فتركه لما عرف أنه ذنب وكراهته له ومنع نفسه منه أمور وجودية ، وإنما يثاب على الترك على هذا الوجه.

وقد جعل النبى ﷺ البغض فى الله من أوثق عرى الإيمان [1] ، وهو أصل الترك .

وجعل المنع لله من كمال الإيمان [2] وهو أصل الترك .

وكذلك براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركا محضاً ، بل صادراً عن بغض وعداوة .

---

(١) انظر ص ٨١ .

(٢) انظر ص ٦٢ .

وأما السيئات فمنشؤها من الظلم والجهل ، وفى الحقيقة كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها ؛ فإن هذا خاصة العقل ، وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهوة .

والغفلة ، والشهوة أصل الشر ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ [الكهف : ٢٨] الآية

السابع : أن ابتلاءه له الذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه .

الثامن : أنّ ما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه ؛ فيرجع فى ذلك إلى الله ، ولا يرجو إلا هو ؛ فهو يستحق الشكر التام الذى لا يستحقه غيره ، وإنما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه، ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله ، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق ، ونعم المخلوق منه أيضاً ، وجزاؤه على الشكر والكفر لايقدر أحد على مثله .

فإذا عرف أن ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ [فاطر : ٢] صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده ، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذى يستحقه صار له . . . [١] .

والشر انحصر سببه فى النفس ، فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله ، كما قال بعض السلف : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه .

وقد تقدم قول السلف - ابن عباس وغيره - : إنّ ما أصابهم يوم أحد مطلقاً كان بذنوبهم لم يستثن أحد . وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ؛ لئلا يظن أنه عام مخصوص .

التاسع : أن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة ، كما قال تعالى : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ** ﴾ [النور : ٢٦] الآية .

---

(١) بياض بالأصل .

وقال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٦] وقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] والأقوال والأفعال صفات للقائل الفاعل ، فإذا اتصفت النفس بالخبث فمحلها ما يناسبها، فمن أراد أن يجعل الحيات يعاشرن الناس كالسنانير لم يصلح ؛ بل إذا كان في النفس خبث طهرت حتى تصلح للجنة ، كما في حديث أبي سعيد الذي في الصحيح ، وفيه : « **حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة** »(١) .

فإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ [الزلزلة : ٧] إلخ . وعلم أن الرب عليم حكيم ، رحيم عدل ، وأفعاله على قانون العدل والإحسان ، كما في الصحيح « **يمين الله ملآى** » إلى قوله : «**والقسط بيده الأخرى** »(٢) وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل [م ١٤ / ٢٢٢ – ٢٢٦]

وفي قوله تعالى : ﴿ **من نفسك** ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ، ولا يشتغل بملام الناس وذمهم ، بل يسأل الله أنْ يعينه على طاعته، ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة ، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة ، ويدخل فيه من أنواع الحاجات ما لا يمكن حصره .

ويبينه أن الله سبحانه لم يقص علينا قصة في القرآن إلا لنعتبر ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، فلولا أن في النفوس ما في نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ؛ ولكن الأمر كما قال

---

(١) البخاري (٢٤٤٠) .

(٢) البخاري (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة .

تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣] وقوله : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ [الذاريات : ٥٣] وقوله : ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨] ؛ ولهذا في الحديث : « **لتسلكن سنن من كان قبلكم** »[1] .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به ، وطلب أن يكون شريكا له ، وكلا هذين وقع .

وقال بعضهم : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون . وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسداً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى ؛ ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون [م ١٤ / ٢٢٧ - ٢٢٨]

والمقصود أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سبباً لشيء من المصائب ، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيرى الدنيا والآخرة .

ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال ، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليتميز طيبه من خبيثه .

والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه . قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ - ١٤١] وقال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا

---

(١) البخارى (٧٣٢٠) ، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبى سعيد .

فِي قُلُوبِكُم ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ولهذا قال صالح عليه السلاء لقومه : ﴿ **قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** ﴾ [النمل : ٤٧] .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم وما أصابهم فى الجهاد من مصائب بأيدى العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال « **ما من غازية يغزون فى سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثى أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا ،تم لهم أجرهم** »[1] .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح . كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [سورة التوبة : ١٢٠] .

وشواهد هذا كثيرة [م ١٤ / ٢٥٤ - ٢٥٥]

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصى مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة ، فلمَ فرق بين الحسنات - التى هى النعم - والسيئات - التى هى المصائب - فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟

قيل : لفروق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلا .

فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط وينشىء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة وقد خلقهم فى الآخرة لم يعملوا

---

(١) مسلم (١٩٠٦) من حديث ابن عمرو .

خيراً ، ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل .

وأما العقاب فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثانـي : أن الذى يعمل الحسنات ، إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وفى الحديث الصحيح « **يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** »[1] .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته .

ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذى اهتدوا به ، هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته ، كما قال تعالى ﴿ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** ﴾ [الحجرات ٧ - ٨] .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة ، هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً ، ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به ، وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر .

فقوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٩] حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد ، وذنبه من نفسه ، وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصــــــــــل

فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله ، فشكر الله ، فزاده الله من فضله عملا صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه .

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً .

فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان النبى ﷺ يقول فى خطبته (1) : « **الحمد لله** » فيشكر الله .

ثم يقول «**نستعينه ونستغفره**» نستعينه على الطاعة،ونستغفره من المعصية

ثم يقول : « **ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا** » فيستعيذ به من الشر الذى فى النفس ، ومن عقوبة عمله .

فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه،فيستعيذ الله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا،ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله،ومن عقوبات عمله،فاستعانه على الطاعة وأسبابها،واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه يوجب له هذا وهذا ، فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما فى قوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصى على قول من أدخلها فى ﴿ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ .

ثم بين الفرق الذى ينتفعون به ، وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم .

---

(1) تقدم قريباً ص ١٠١ .

وهذا الشر من ذنوبكم ، فاستغفروه ، يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الانفال : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ **الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ [هود ١ - ٣] .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ، كآدم وغيره .

وإذا أصر ، واحتج بالقدر فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول : « **اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم** » [1] .

فيستغفر مما مضى ، ويستعيذ مما يستقبل ، فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله - الجزاء والعمل - سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] وبقوله ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة : ٦] وقوله : ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾

(١) أبو داود (٥٠٨٣) ، والترمذي (٣٣٩٢) وقال : حسن صحيح .

[آل عمران : ٨] ونحو ذلك . وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق فإنه يحصل من هذا التسوية ، فأعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها ، بل وقام في نفسه أن يحتج على الله بالقدر ، وتلك حجة داحضة لا تنفعه ، بل تزيده عذاباً وشقاءً ، كما زادت إبليس لما قال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] . وقال ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[الحجر : ٣٩] .

وكالذين يقولون يوم القيامة ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر : ٥٧] وكالذين قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾

[الأنعام : ١٤٨] .

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله والاستعاذة به ، واستهدائه كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة .

فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

فصـــــل

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويثيب على الهم بها .

والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهم بها ، فيعطى صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل .

وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ؛ لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضى الإضافة إليه .

وأما السيئة ، فهو إنما يخلقها بحكمة ، وهى باعتبار تلك الحكمة من إحسانه ، فإن الرب لا يفعل سيئة قط ، بل فعله كله حسن وحسنات ، وفعله كله خير .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول فى دعاء الاستفتاح : « **والخير بيديك ، والشر ليس إليك** . »[1] فإنه لا يخلق شراً محضاً ، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير ، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس ، وهو شر جزئى إضافى ، فأما شر كلى ، أو شر مطلق فالرب منزه عنه وهذا هو الشر الذى ليس إليه

[م ١٤ / ٢٦٠ – ٢٦٦] .

---

(١) مسلم (٧٧) من حديث على .

١٠ - موعظة فى « الحمد »

قال النبى ﷺ : « **مَن قال إذا أصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة ، أو بأحد من خلقك ، فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ؛ فقد أدى شكر ذلك اليوم ، ومن قال إذا أمسى : اللهم ما أمسى بى من نعمة ، أو بأحد من خلقك ، فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ؛ فقد أدى شكر تلك الليلة** »[(١)] رواه أبو داود وغيره ، فكل ما بالخلق من النعم فمنه وحده لا شريك له ، ولهذا هو سبحانه يجمع بين الشكر والتوحيد ، ففى الصلاة أول الفاتحة ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة : ٢] وأوسطها ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين** ﴾ [الفاتحة : ٥] ، والخُطَب و « **كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم** »[(٢)] .

وعن ابن عباس : إذا قلتَ : لا إله إلا الله ، فقل : الحمد لله ، فإن الله يقول: ﴿ **فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين** ﴾ [غافر : ٦٥] وفى حديث عن النبى ﷺ قال : « **من قال حين يصبح : الحمد لله ربى لا أشرك به شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله ؛ ظَلَّ تُغفر له ذنوبه حتى يمسى ، ومن قالها حين يمسى غفرت له ذنوبه حتى يصبح** » رواه أبان المحاربى عن النبى ﷺ كما ذكره ابن عبد البر وغيره .

فالحمد أول الأمر : « **كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم** » ، والتوحيد نهايته ؛ ولهذا كان النصف من الفاتحة - الذى هو لله - أوله حمد وآخره توحيد : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُد** ﴾ .

---

(١) أبوداود (٥٠٧٣) قال النووى : بإسناد جيد [الأذكار (١٩٨)] وابن حبان (٢٣٦١ - موارد) من حديث عبدالله بن غنام .

(٢) أبوداود (٤٨٤٠) ، وابن ماجة (١٨٩٤) وضعفه الألبانى فى الإرواء رقم (٢) .

«والحمد رأس الشكر» [1] ، فالحامد يشكره أولاً على نعمه ، ثم يعبده وحده ، فإن العبد أول ما يعرف ما يحصل له من النعمة ... [ج ١ /١٠٧ - ١٠٨]

الإنسان بجبلَّته يطلب ما يوافقه ويتنعم به - من الغذاء وغيره - على هذا فُطِرَ ، فيعرف النعمة ؛ فيعرف المنعم فيشكره .

فلهذا كان **الحمد** هو الابتداء ، فإن شعوره بنفسه وبما يحتاج إليه ، ويتنعم به قبل شعوره بكل شيء .

وهو من حين خرج من بطن أمه شعر باللبن الذى يحتاج إليه ، ويتنعم به ، وبما يخرج منه - وهو الثدى - فلهذا تعرَّف الله إليه بالنعم ليشكره ، وشكره ابتداء معرفته بالله ، فإذا عرف الله أحبه فعبده ، وتنعَّم بعبادته وحده لا شريك له ، وعرف ما فى التأله له من اللذة العظيمة التى لايعدلها لذة ؛ فلهذا كان التوحيد نهايته ؛ أوله الحمد ، وآخره ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾

وكذلك فى الجنة ، كما فى «صحيح مسلم» عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحَجاب ، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة** » [2] .

فالنظر إليه أكمل اللذات وآخرها ، كما قال : « **فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه** » . ولهذا قيل : أطيب ما فى الدنيا معرفته ، وأطيب ما فى الآخرة مشاهدته [ج ١ /١١٠ - ١١١] .

---

(١) عزاه السيوطى في «الجامع الصغير» إلى عبدالرزاق والبيهقي فى «الشعب» ، وضعفه الألبانى في «ضعيف الجامع» (٢٧٩٠) .
(٢) مسلم (١٨١) .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت ، أنه رأس الشكر ، فهو أول الشكر .

والحمد – وإن كان على نعمته وعلى حكمته – فالشكر بالأعمال ، هو على نعمته ، وهو عبادة له لإلهيته التى تتضمن حكمته ؛ فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر ، ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذ كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد – الذى هو الشكر المقول – أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففى الفاتحة : الشكر والتوحيد ، والخطب الشرعية لابد فيها من الشكر والتوحيد .

والباقيات الصالحات نوعان :

فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم .

ولا إله إلا الله ، والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير ...

وقد قال تعالى ﴿ **فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [غافر : ٦٥] .

وفى الصحيح [١] « أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : «**ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد** » هذا لفظ الحديث .

«**أحق**» أفعل التفضيل .

---

(١) مسلم (٤٧٧) .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا : « حق ما قال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول ، وليس هو بقول سديد ، فإن العبد يقول الحق والباطل ، بل حق ما يقوله الرب ، كما قال تعالى ﴿ **فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ** ﴾ [ص : ٨٤] .

ولكن لفظه « **أحق ما قال العبد** » خبر مبتدأ محذوف أى : الحمد أحق ما قال العبد . أو هذا – وهو الحمد – أحق ما قال العبد .

ففيه بيان أن الحمد لله أحق ما قاله العباد ؛ ولهذا أوجب قوله فى كل صلاة، وأن تفتتح به الفاتحة ، وأوجب قوله فى كل خطبة ، وفى كل أمر ذى بال .

والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ؛ أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .
[م ١٤ / ٣١٠ – ٣١٣]

فقوله : « **أحق ما قال العبد** » يقتضى : أن حمد الله أحق ما قاله العبد ، فله الحمد على كل حال ؛ لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذى يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى ، وإن كان العباد لا يعملون .
[م ١٤/٣١٤ – ٣١٥]

فى كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر ، وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالثقلين المخاطبين بقوله ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن : ١٣] من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة ، فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم ، وإهلاك عدوهم – كما ذكره فى سورة النجم ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى** ﴾ [النجم : ٥٠ – ٥٤] تدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهى والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى** ﴾ [النجم : ٥٦] قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن ؛ فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيراً ، فقال فى رسول الله ﴿ **إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون** ﴾ [الأعراف : ١٨٨] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [الفتح : ٨] وقال تعالى فى القرآن : ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُون * بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ [فصلت: ٣ – ٤] وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين مراد ، يقال : هذا نذيرٌ أنذرَ بما أنذرتْ به الرسلُ والكتبُ الأولى .

وقوله ﴿ **من النذر** ﴾ أى من جنسها ، أى : رسول من الرسل المرسلين .

ففى المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها وهذه أفضل النعم .

فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة ، قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف : ١١١] وقال تعالى : ﴿ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** ﴾ [ق : ٨] .

وما يصيب الإنسان ، إن كان يَسرُّه ، فهو نعمة بينة ، وإن كان يسوءه ، فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ، ويثاب بالصبر عليه .

ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وقد قال في الحديث : « **والله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له** » [١] . وإذا كان هذا وهذا ؛ فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها .

فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء ، كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحديث « **أعوذ بك من فتنة الفقر ، وشر فتنة الغنى** » [٢] .

والفقر يصلح عليه خلق كثير ، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

---

(١) مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب .

(٢) البخاري (٦٣٦٨) ، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين [1] ، لأن فتنة الفقر أهون ، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر .

لكن لما كان في السراء اللذة ، وفي الضراء الألم ؛ اشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء ، قال تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ [هود : ٩-١١] .

ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر ، فإنَّ صبر هذا وشكر هذا واجب ، إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات . وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر – الذى هو حسنات – يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء لا يكون الشكر فى حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين ، وقد يكون تقصيره فى الشكر مما يغفر له ، لما يأتى به من الصبر .

فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس .

والمقصود هنا أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس ؛ فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

---

(١) البخارى (٦٥٤٦) ، ومسلم (٢٧٣٧) .

وأما ذنوب الإنسان فهى من نفسه ، ومع هذا فهى - مع حسن العاقبة - نعمة ، وهى نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان ، ولهذا كان من أحسن الدعاء : اللهم لا تجعلنى عبرة لغيرى ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتنى منى .

وفى دعاء القرآن ﴿ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [يونس : ٨٥] ، و ﴿ **لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [الممتحنة : ٥] كما فيه ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٤] أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم ، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و« الآلاء» فى اللغة : هى النعم ، وهى تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله فى هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ؛ جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها . [م ١٤ / ٣٠٢ - ٣٠٧]

١١- موعظة في « الزهد »

الزهد المشروع : هو ترك [كل] شيء لا ينفع في الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله ، كما في الحديث الذي في الترمذي « **ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكنَّ الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبتَ أرغبَ منك فيها لو أنها بقيت لك** »[(١)] لأن الله تعالى يقول : ﴿ **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ [الحديد : ٢٣] فهذا صفة القلب .

وأما في الظاهر ، فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك ، كما قال الإمام أحمد : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وصبر أيام قلائل .

وجماع ذلك خُلُقُ رسول الله ﷺ ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول : « **خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة** »[(٢)] وكان عادته في المطعم أنه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً ، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك ، وكان القطن أحب إليه ، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدى فيزيد في الزهد ، أو العبادة على المشروع ، ويقول : أينا مثل رسول الله ﷺ ؟! يغضب لذلك ، ويقول : « **والله إني لأخشاكم لله ، وأعلمكم بحدود الله تعالى** »[(٣)] ، وبلغه أن بعض أصحابه قال : أما أنا فاصوم فلا أفطر ، وقال الآخر: أما أنا فاقوم فلا أنام ، وقال آخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر :

---

(١) الترمذي (٢٣٤٠) وقال : غريب . وابن ماجه (٤١٠٠) ، والحديث ضعيف جداً ، وصحح الشيخ محمد عمرو بن عبداللطيف - حفظه الله - وقفه على أبي مسلم الخولاني راجع «تبييض الصحيفة» (٧٠/٢) .

(٢) مسلم (٨٦٧) من حديث جابر .

(٣) مسلم (١١١٠) من حديث عائشة ، و (١١٠٨) من حديث عمر بن أبي سلمة

أما أنا فلا آكل اللحم ، فقال ﷺ : « **لكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى** »(١) .

[م ١٠/٦٤١ - ٦٤٢]

الزهد النافع المشروع الذى يحبه الله ورسوله : هو الزهد فيما لا ينفع فى الآخرة ، فأما ما ينفع فى الآخرة ، وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد فى نوع من عبادة الله وطاعته ، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر ، أو زهد فيما لا ينفع ، فأما الزهد فى النافع فجهل وضلال كما قال النبى ﷺ : « **احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن** »(٢) .

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله ، وكل ما صده عن ذلك فإنه ضار لا نافع ، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له ، وإن أدى الفرائض وفعل مباحا لا يعينه على الطاعة ، فقد فعل ما ينفعه ، وما لا ينفعه ولا يضره [م ١٠/٥١١] .

وأما نفس الزهد الذى هو ضد الرغبة - وهو الكراهة والبغض - فحقيقة المشروع منه أن يكون كراهة العبد وبغضه وحبه تابعاً لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه ، فيحب ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه الله ، ويرضى ما يرضاه ، ويسخط ما يسخطه الله ، بحيث لا يكون تابعاً هواه ، بل لأمر مولاه ، فإن كثيرا من الزهاد فى الحياة الدنيا أعرضوا عن فضولها ، ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله ، وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ، ولهذا كان فى المشركين زهاد ، وفى أهل الكتاب زهاد ، وفى أهل البدع زهاد .

ومن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا ، ومنهم من يزهد لمسألة أهلها ، والسلامة من أذاهم ، ومنهم من يزهد فى المال لطلب الراحة ، إلى

---

(١) البخارى (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) .

(٢) مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبى هريرة .

أمثال هذه الأنواع التى لا يأمر الله بها ولا رسوله ، وإنما يأمر الله ورسوله أن يزهد فيما لا يحبه الله ورسوله ، ويرغب فيما يحبه الله ورسوله ، فيكون زهده هو الإعراض عما لا يأمر الله به ورسوله ، أمر إيجاب ولا أمر استحباب ، سواء كان محرماً ، أو مكروهاً ، أو مباحاً مستوى الطرفين فى حق العبد ، ويكون مع ذلك مقبلاً على ما أمر الله به ورسوله ، وإلا فترك المكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب ، وإنما المطلوب بالمقصود الأول فعل ما يحبه الله ورسوله ، وترك المكروه متعين كذلك ، به تزكو النفس ، فإن الحسنات إذا انتفت عنها السيئات زكت ، فبالزكاة تطيب النفس من الخبائث ، وتعظم فى الطاعات ، كما أن الزرع إذا أزيل عنه الدغل زكا وظهر وعظم [م ٧ / ٦٥٢ – ٦٥٣] .

مجلس فى « الورع النافع المشروع »

الورع المشروع : هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو ما يعلم تحريمه ، وما يشك فى تحريمه ، وليس فى تركه مفسدة أعظم من فعله – مثل محرم معين – مثل من يترك أخذ الشبهة ورعا مع حاجته إليها ، ويأخذ بدل ذلك محرما بيِّناً تحريمه ، أو يترك واجباً تركه أعظم فساداً من فعله مع الشبهة ، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها ، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ، ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهنة .

وكذلك من الورع الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه لكن على هذا الوجه .

وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم أنَّ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما فى الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة والشرعية ، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً ، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ، ويرى ذلك من الورع ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما فى صاحبه من بدعة خفية ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذى يجب سماعه من الورع [م ١٠/ ٥١١ – ٥١٢] .

ينبوعُ الخير وأصلهُ إخلاصُ العبدِ لربه عبادةً واستعانةً ، كما فى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] وفى قوله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وفى قوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] وفى قوله : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [العنكبوت : ١٧] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم ، أو عملاً لأجلهم ، ويجعل همته ربه تعالى ، وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك ، والعمل له بكل محبوب ، ومَنْ أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك [م ١٠/ ٦٥٩ - ٦٦٠] .

ومنهم [1] من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعانة به ، وقطع التعلق بما سواه ، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة ، فإنه يخذل من جهتهم ، ولا يحصل مقصوده ، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم ، فلا ينفعونه ، إما لعجزهم ، وإما لانصراف قلوبهم عنه ، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار ، واستغاث به مخلصاً له الدين أجاب دعاءه ، وأزال ضرره ، وفتح له أبواب الرحمة ، فمثل هذا قد ذاق [من] حقيقة التوكل والدعاء لله ، ما لم يذق غيره ، وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك . . .

وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله ، والعبادة له ، وحلاوة ذكره ومناجاته وفهم كتابه ، وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً ، ويكون لوجه الله خالصاً ؛ فإنه يجد

---

(١) أى : من الناس .

من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعى المتوكل الذى نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا ، أو اندفع عنه ما يضره ، فإن حلاوة ذلك هى بحسب ما حصل له من المنفعة ، أو اندفع عنه من المضرة ، أو أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك .

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التى هى حقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ مع حقيقة التوكل التى هى حقيقة ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا . والله أعلم [م ١٠/ ٦٥٠ - ٦٥٢] .

فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة ، كما أمرنا أن نقول فى صلاتنا ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] فهاتان الكلمتان قد قيل : إنهما تجمعان معانى الكتب من السماء .

وروى أنه ﷺ كان مرة فى غزاة ، فقال : « **يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين** » فجعلت الرؤوس تندر عن كواهلها [1] [ج ١ /٨٢] .

أرجح المكاسب التوكل على الله ، والثقة بكفايته ، وحسن الظن به . وذلك أنه ينبغى للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيُّه : « **كلكم جائع إلا مَنْ أطعمتهُ فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم** » [2] وفيما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « **ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه إنْ لم ييسره لم يتيسر** » [3] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النساء : ٣٢] وقال سبحانه : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة : ١٠]

---

(١) رواه أبونعيم فى « دلائل النبوة» (ص ٣٩٤) من حديث أبى طلحة بإسناد ضعيف جداً .

(٢) مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر .

(٣) الترمذى (٣٦١٢ - التحفة) ، وابن حبان (٢٤٠٢) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٤٩٤٦) .

وهذا وإن كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات ، ولهذا والله أعلم أمر النبى ﷺ الذى يدخل المسجد أن يقول : « **اللهم افتح لى أبواب رحمتك** » وإذا خرج أن يقول : « **اللهم إنى أسألك من فضلك** »[1] وقد قال الخليل ﷺ : ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾ [العنكبوت : ١٧] وهذا أمر ، والأمر يقتضى الإيجاب فالاستعانة بالله واللجأ إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغى له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ، ولا يأخذه بإشراف وهلع ، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج إليه من غير أن يكون له فى القلب مكانة ، والسعى فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء . وفى الحديث المرفوع الذى رواه الترمذى وغيره : « **من أصبح والدنيا أكبر همه ، شتت الله عليه شمله ، وفرق عليه ضيعته ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح والآخرة أكبر همه ، جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة** »[2] .

وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾
[الذاريات ٥٦- ٥٨]   [م ١٠ / ٦٦٢ - ٦٦٣] .

ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين : بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء .

ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله .

ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات   [المدارج ٢ /١١٨] .

---

(١) مسلم (٧١٣) .

(٢) الترمذى (٢٤٦٥) ، وابن ماجة (٤١٠٥) وابن حبان (٧٢) بلفظ (من كانت ...) .

العبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ، ولها أصلان : أحدهما : ألا يُعْبَد إلا الله .

والثانى: أنْ يُعْبدَ بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع . قال تعالى : ﴿ فمن كَانَ يرْجُو لقَاءَ ربّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالحًا ولا يُشْرِكْ بعبَادَة ربّه أحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه وَهُوَ مُحْسنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عندَ ربّه وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دينًا ممَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه وَهُوَ مُحْسنٌ وَاتَّبَعَ ملَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إبْرَاهيمَ خَليلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] فالعمل الصالح هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات ، والحسنات هى ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، فما كان من البدع فى الدين التى ليست مشروعة فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما أن من يعمل ما لا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ، ولا من العمل الصالح .

وأما قوله : ﴿ وَلا يُشْرِكْ بعبَادَة ربّه أَحَدًا ﴾ وقوله : ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه ﴾ فهو إخلاص الدين وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض فى قوله : ﴿ ليَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [تبارك : ٢] قال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .. [م ١٠/١٧٢ - ١٧٤] .

١٤ - موعظة في « الخشية والعلم »

قال شيخ الإسلام في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

المعنى أنه لا يخشاه إلا عالم ؛ فقد اخبر الله أنَّ كل من خشى الله فهو عالم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] والخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ؛ كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله ، وقد روى عن أبى حيان التيمى أنه قال : العلماء ثلاثة : فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله . فالعالم بالله هو الذى يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذى يعلم أمره ونهيه ، وفى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « **والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده** »[1] .

وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة ، لم يكونوا مستحقين للذم ، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١٣-١٤] وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف ، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ؛ ولهذا يقال للفاجر : لا يخاف الله . ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] .

---

(١) مسلم (١١٠٨ ، ١١١٠) وتقدم فى (الزهد) .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لى : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، وكذلك قال سائر المفسرين . قال مجاهد : كل عاص فهو جاهل حين معصيته . وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم : إنما سموا جهالاً لمعاصيهم ، لا أنهم غير مميزين . وقال الزجاج : ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء ؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً ؛ وإنما يحتمل أمرين :

أحدهما : أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه .

والثانى : أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة ، وآثروا العاجل على الآجل ؛ فسموا جهالاً لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة ، والعافية الدائمة . فقد جعل الزجاج الجهلَ إما عدم العلم بعاقبة الفعل ، وإما فساد الإرادة ؛ وقد يقال : هما متلازمان ، وهذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية .

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله ، وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله ، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص . ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً . وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه ، وتصور المحبوب يوجب طلبه ، فإذا لم يهرب من هذا ، ولم يطلب هذا ؛ دل على أنه لم يتصوره تصوراً تاماً ؛ ولكن قد يتصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه .

وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً ؛ فإن الإنسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً .

وكذلك إذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ، ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه ، لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به ، فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب .

وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ، ويروى مرسلاً عن النبى ﷺ : العلم علمان : فعلم فى القلب ، وعلم على اللسان ، فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده .[1]   [م ٧ / ٢١ – ٢٣] .

(١) قال الحافظ العراقى : [رواه] الترمذى الحكيم فى «النوادر» ، وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح ، وأسنده الخطيب فى «التاريخ» (٢٤٦/٤) من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد ، وأعله ابن الجوزى . أ . هـ «تخريج الإحياء» (٥٨/١) ورواه ابن أبى شيبة (٢٣٥/١٣) عن الحسن مرسلاً .

١٥ - موعظة في « الخشوع »

الخشوع يتضمن معنيين ، أحدهما : التواضع والذل .

والثاني : السكون والطمأنينة ، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة ، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً ، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا ، وهذا : التواضع ، والسكون . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢] قال : مخبتون أذلاء . وعن الحسن وقتادة : خائفون . وعن مقاتل : متواضعون .

وعن علي : الخشوع في القلب ، وأن تلين للمرء المسلم كنفك ، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً .

وقال مجاهد : غض البصر وخفض الجناح ، وكان الرجل من العلماء إذ قام إلى الصلاة يهاب الرحمن أن يشد بصره ، أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا .

وعن عمرو بن دينار : ليس الخشوع الركوع والسجود ؛ ولكنه السكون وحب حسن الهيئة في الصلاة . وعن ابن سيرين وغيره : كان النبي ﷺ وأصحابه يرفعون أبصارهم في الصلاة إلى السماء ، وينظرون يميناً وشمالاً حتى نزلت هذه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون ١-٢] الآية . فجعلوا بعد ذلك أبصارهم حيث يسجدون ، وما رؤي أحد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الأرض . وعن عطاء : هو أن لا تعبث بشيء من جسدك وأنت في الصلاة وأبصر النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال : « **لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه** »[(١)] .

وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب ، إذا لم يكن الرجل مرائياً يظهر ما ليس في قلبه كما روى : تعوذوا بالله من خشوع النفاق ، وهو أن يرى الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً . فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) رواه «الحكيم الترمذي» وقال العلامة الألباني : موضوع (الإرواء ٣٧٣ - الضعيفة ١١٠) .

أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ [الحديد : ١٦] فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه ، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وهؤلاء هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

وكذلك قال في الآية الأخرى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ [الزمر : ٢٣] والذين يخشون ربهم ، هم الذين إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم .

فإن قيل : فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب . قيل : نعم لكن الناس فيه على قسمين : مقتصد ، وسابق ، فالسابقون يختصون بالمستحبات ، والمقتصدون الأبرار : هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ، ومن لم يكن من هؤلاء ، ولا هؤلاء ؛ فهو ظالم لنفسه . وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : « **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع** » [(١)] .

وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع ، فقال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ [البقرة : ٧٤] قال الزجاج : « قست » في اللغة : غلظت ويبست وعسيت . فقسوة القلب ، ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه ، والقاسي والعاسي : الشديد الصلابة .

وقال ابن قتيبة : قست وعست وعتت : أي « يبست » . وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة ، فإنه ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف ، وليناً من غير ضعف ، وفي الأثر : القلوب آنية الله في أرضه ، فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها . وهذا كاليد فإنها قوية لينة ، بخلاف ما يقسو من العقب فإنه يابس لا لين فيه ، وإن كان فيه قوة [م ٧ / ٢٨ - ٣٠] .

---

(١) مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم .

١٦ - « الغفلـــة والشـــهوة »

جماع الشر : الغفلة والشهوة ، فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذى هو الذكر واليقظة .

والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف ، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه ، غافلا عن الله ، رائداً غير الله ، ساهياً عن ذكره ، قد اشتغل بغير الله ، قد انفرط أمره ، قد ران حب الدنيا على قلبه ، كما روى فى «صحيح البخارى» وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « **تعس عبدالدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضى ، وإن منع سخط** » [١] .

جعله عبد ما يرضيه وُجُودُه ويسخطه فَقدُه ، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف فى هذا الحديث ، والقطيفة : هى التى يجلس عليها فهو خادمها ، كما قال بعض السلف : البس من الثياب ما يخدمك ، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه ،وهى كالبساط الذى تجلس عليه ، والخميصة : هى التى يرتدى بها ، وهذا من أقل المال ، وإنما نبه به ﷺ على ما هو أعلى منه ، فهو عبد لذلك ، فيه أرباب متفرقون ، وشركاء متشاكسون .

ولهذا قال : « **إن أعطى رضى ، وإن منع سخط** » . فما كان يرضى الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده ، إذ العبد يرضى باتصاله بهما ، ويسخط لفقدهما . والمعبود الحق الذى لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن ، وأحبه حصل للمؤمن بذلك فى قلبه إيمان ، وتوحيد ، ومحبة ، وذكر ، وعبادة ، فيرضى بذلك ، وإذا منع من ذلك غضب .

وكذلك من أحب شيئاً فلابد أن يتصوره فى قلبه ، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان .

---

(١) البخارى (٢٨٨٦) .

قال الجنيد : لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً .

وهذا مطابق لهذا الحديث ، فإنه لا يكون عبداً لله خالصاً مخلصاً دينه لله كله حتى لا يكون عبداً لما سواه ، ولا فيه شعبة ، ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله ، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير ، ففيه من الشرك بقدر محبته ، وعبادته لذلك الغير زيادة .

قال الفضيل بن عياض : والله ما صدق الله فى عبوديته مَنْ لأحد من المخلوقين عليه ربانية .

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحداً ، أم ألف رب أدين إذا انقسمت الأمور ؟!

روى الإمام أحمد والترمذى والطبرانى من حديث أسماء بنت عميس قالت -قال رسول الله : « بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ، ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سها ولها ونسى المقابر والبلى ، بئس العبد عبد بغى واعتدى ، ونسى المبدا والمنتهى ، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين ، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات ، بئس العبد عبد رَغَبٌ يُذِلُّه ويزيله عن الحق ، بئس العبد عبد طمعٌ يقوده ، بئس العبد عبد هوى يضله » قال الترمذى : غريب [1] . وفى الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه . والله أعلم [م ١٠/٥٩٧ - ٥٩٩] .

---

(١) رقم (٢٤٤٨) ، وقال : ليس إسناده بالقوى . أ هـ ورواه الحاكم (٣١٦/٤) وصححه ، قال الذهبى: إسناده مظلم . أ . هـ ولم أجده فى المسند ولم يعزه العراقى إليه فى «تخريج الإحياء» (٢٢٨/٢).

وأما السيئات : فمنشؤها الجهل والظلم . فإنَّ أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها .

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفي الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل . وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فِعْلَ هذا يضره ضرراً راجحاً لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل .

ولهذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضراراً راجحاً كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أن هذا يضره – كالصبي ، والمجنون ، والساهي والغافل – فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره – مع علمه بما فيه من الضرر عليه – فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح ، فلابد من رجحان الخير ، إما في الظن وإما في المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح ، فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

وكذلك الذنوب ، إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق .

وكذلك الزاني ، إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن .

والشارب يختلف حاله ، فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك . ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك

الأحاديث،كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله .

أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً فيبقى غافلا ، غير مستحضر للتحريم ، والغفلة من أضداد العلم .

فصـــــــــل

فالغفلة والشهوة أصل الشر ، قال تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً ؛ انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهى ، وذو حجى .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار ، كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال: ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [طه : ١٢٠ - ١٢١] وقال: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٧] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨] وقال تعالى : ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وقوله : ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ وهو بتوسط تزيين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير ، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ

زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾
[الأنعام ١٣٧]

فأصل ما يوقع الناس في السيئات الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً ، ولهذا قال الصحابة رضى الله عنهم : كل من عصى الله فهو جاهل ، وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] كقوله ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، ومن تاب قبيل الموت ، فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال : أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة ، عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عِصى الله فهو جاهل .

وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً – من شيخ ، أو شاب – فهو بجهالة .

وقال : من عصى ربه فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته .

وقال أيضاً : هو إعطاء الجهالة العمد .

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثماً عمداً ، فهو جاهل ، حتى ينزع منه .

رواهن ابن أبي حاتم ، ثم قال : روى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك : خطأ ، أو عمداً .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراماً ، ولكن من جهالته حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصرى : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها ، فإنها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته ، فهو عالم . كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال رجل للشعبى : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم ، فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضى أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين ، حصر الأول فى الثانى ، وهو مطرد ، وحصر الثانى فى الأول نحو قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] وقوله ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] وقوله ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة ١٥-١٦] .

وذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم ، وهذا كالاستثناء ، فإنه من النفى إثبات ، عند جمهور العلماء . كقولنا : لا إله إلا الله . وقوله

تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء :٢٨] وقوله ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] وقوله ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] .

[م ١٤ / ٢٨٧ – ٢٩٣]

* * *

*

١٧ - فريق في الجنة وفريق في السعير

سُئِل شيخ الإسلام رحمَه الله تعَالى

ما عمل أهل الجنة ؟ وما عمل أهل النار ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

عمل أهل الجنة : الإيمان والتقوى ، وعمل أهل النار الكفر والفسوق والعصيان ، فأعمال أهل الجنة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، والشهادتان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وأن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ومن أعمال أهل الجنة : صدق الحديث ، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد ، وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم .

ومن أعمال أهل الجنة : الإخلاص لله والتوكل عليه ، والمحبة له ولرسوله ، وخشية الله ورجاء رحمته، والإنابة إليه ، والصبر على حكمه، والشكر لنعمه .

ومن أعمال أهل الجنة : قراءة القرآن وذكر الله ودعاؤه ومسألته والرغبة إليه .

ومن أعمال أهل الجنة : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله للكفار والمنافقين .

ومن أعمال أهل الجنة : أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ؛ فإن الله أعد الجنة للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين .

ومن أعمال أهل الجنة : العدل فى جميع الأمور ، وعلى جميع الخلق حتى الكفار . وأمثال هذه الأعمال .

وأما عمل أهل النار : فمثل الإشراك بالله ، والتكذيب بالرسل والكفر والحسد ، والكذب والخيانة ، والظلم والفواحش ، والغدر وقطيعة الرحم ، والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله ، واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، ورجاء المخلوق دون الخالق ، والتوكل على المخلوق دون الخالق ، والعمل رياء وسمعة ومخالفة الكتاب والسنة وطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، والتعصب بالباطل ، والاستهزاء بآيات الله وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة .

ومن عمل أهل النار : السحر ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، وأكل مال اليتيم وأكل الربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وتفصيل الجملتين لا يمكن ؛ لكن أعمال أهل الجنة كلها تدخل فى طاعة الله ورسوله ، وأعمال أهل النار كلها تدخل فى معصية الله ورسوله ، ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [النساء ١٣ - ١٤] والله أعلم [م ١٠ / ٤٢٢ - ٤٢٤] .

الإنسان يذنب دائماً ؛ فهو فقير مذنب ، وربه تعالى يرحمه ويغفر له ، وهو الغفور الرحيم ، فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خيراً أصلاً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه ، وهو محتاج دائماً إلى حصول النعمة ودفع الضر والشر ، ولا تحصل النعمة إلا برحمته ، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته ، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء : ٧٩] والمراد بالسيئات : ما يسوء العبد من المصائب . وبالحسنات : ما يسره من النعم ، كما قال ﴿ **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٦٨] فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلاً وَجُوداً . . .

وفي صحيح أبي داود [(١)] وابن حبان : « **اهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك قابليها ، وأتمها علينا** » .

وفي الفاتحة ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة : ٦] وفي الدعاء الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال : مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة : « **اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين** » [(٢)] .

[م ١ / ٤٣] .

---

(١) كذا في « الفتاوى » (١/٤٣) ولعل الصواب :
سنن أبي داود وصحيح ابن حبان ، والحديث رواه أبو داود (٩٦٩) وابن حبان (٢٤٢٩ موارد) .
(٢) ضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١١٨٦) .

وقال شيخ الإسلام فى قول النبى ﷺ : « **لا يدخل أحد الجنة بعمله** » . قيل: ولا أنت ؟ قال : « **ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته** »[1] :

تبين بهذا الحديث أنه لابد من عفو الله وتجاوزه عن العبد ، وإلا فلو ناقشه على عمله لما استحق به الجزاء ، قال الله تعالى : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ** ﴾ [الأحقاف : ١٦] وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٣] إلى قوله ﴿ **لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٥] وإذا تبين ذلك أفاد هذا الحديث ألا يُعْجَب العبد بعمله، بل يشهد نعم الله عليه وإحسانه إليه فى العمل ، وأنه لا يستكثر العمل، فإن عمله لو بلغ ما بلغ – إن لم يرحمه الله ، ويعف عنه ، ويتفضل عليه – لم يستحق به شيئاً ، وأنه لا يكلف من العمل ما لا يطيق ظاناً أنه يزداد بذلك أجره ، كما يزداد أجر الأجير الذى يعمل فوق طاقته ، فإن ذلك يضره ، إذ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وأحب العمل ما داوم عليه صاحبه[*] ، فإن «**الأعمال بالخواتيم**»[**] ، بخلاف عمل الأُجَرَاء فى الدنيا ، فإن الأجرة تتقسط على المنفعة ، فإذا عمل بعض العمل استحق من الأجرة بقدر ما عمل ، ولو لم يعَمل إلا قليلاً .

فمَنْ ختم له بخير استحق الثواب ، وكَفَّرَ الله بتوبته سيئاته ، ومن خُتم له بكفر حبطت ردَّتُه حسناته ؛ فلهذا كان العمل الذى داوم عليه صاحبه إلى الموت خيراً ممن أعطى قليلاً ثم أكدى ، وكلف نفسه ما لا يطيق كما يفعله كثير من العمال .

---

(١) البخارى (٦٤٦٣) ، ومسلم (٢٨١٦)

(*) البخارى (١٩٧٠) ، ومسلم (٧٨٥) .

(**) أحمد (٥/٣٣٥) ومعناه فى الصحيحين .

فقوله ﷺ : « **سددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخل الجنة بعمله** »[1] . ينفى المعاوضة والمقابلة التى يولِّد اعتقادها هذه المفاسد .

وقوله : ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل : ٣٢] يثبت السبب الموجب لأَنْ يفعله العبد ، ولهذا قال بعضهم : اعمل وقدِّر أنك لم تعمل .

وقال آخر : لابد منك ، وبك وحدك لا يجىء شىء .

فلابد من العمل المأمور به ، ولابد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله وشهود العبد تقصيره ، ولفقره إلى فضل ربه ، وإحسان ربه إليه .

وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : ينجون من النار بالعفو ، ويدخلون الجنة بالرحمة ، ويتقاسمون المنازل بالأعمال .

فنبه على أن مقادير الدرجات فى الجنة تكون بالأعمال ، وأن نفس الدخول هو بالرحمة ، فإن الله قد يدخل من ينشئه لها فى الدار الآخرة بخلاف النار ، فإنه أقسم أن يملأها من إبليس وأتباعه .

لكن مع هذا فالعمل الصالح فى الدنيا سبب للدخول والدرجة ، وإن كان الله يُدخل الجنة بدون هذا السبب ، كما يدخل الأبناء تبعاً لآبائهم[2]

[م ١ / ١٥٠ - ١٥٢] .

---

(١) جزء من الحديث السابق هامش (١) .

(٢) أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (١/١٣٥) والشاهد منه : «**إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة**» .

أعظم السيئات .

أعظم السيئات جحودُ الخالق ، والشرك به ، وطلبُ النفس أن تكون شريكةً ونداً له ، أو أن تكون إلها من دونه ، وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى ، ، وقال : ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي** ﴾ [القصص : ٣٨] وقال : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات : ٢٤] وقال لموسى ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢٩] و ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** ﴾ [الزخرف : ٥٤] .

وإبليس يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل ، وفى نفوس سائر الإنس والجن شعبةٌ من هذا وهذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما فى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فاظهر ، وغيره عجز فاضمر .

وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه ، ويعادى من يخالفه فى هواه .

وإنما معبوده ما يهواه ويريده ، قال تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴾ [الفرقان : ٤٣] والناس عنده فى هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم ، يقولون : « يا رباعى » ، أى : صديق وعدو .

فمن وافق هواهم كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً ، ومن لم يوافق هواهم كان عدوا ، وإن كان من أولياء الله المتقين وهذه هى حال فرعون .

[م ١٤/٣٢٣- ٣٢٤]

الكلمـــــة الطيبــــة .

قال الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم ٢٤ – ٢٧] .

والأصول : مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ؛ ولهذا يقال فيه : الأصل : ما ابتنى عليه غيره أو ما تفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هى أصول الأنبياء ، كما قيل :

أيها المغتدى لتطلبَ علماً   كلُّ علمٍ عبدٌ لعلم الرسولِ

تطلبُ الفرعَ كى تصححَ حُكماً   ثم أغفلتَ أصلَ أصلِ الأصولِ

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

وهذه الأصول ينبنى عليها ما فى القلوب ، ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التى فى قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التى فى قلوب الكافرين .

و (الكلمة) هى قضية جازمة وعقيدة جامعة ، ونبينا ﷺ أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ؛ فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضيـة .

فالكلمة الطيبة فى قلوب المؤمنين وهى - العقيدة الإيمانية التوحيدية - كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

فأصل أصول الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها فى السماء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] والله سبحانه مثَّل الكلمة الطيبة ، أى : كلمة التوحيد ، بشجرة طيبة ، أصلها ثابت، وفرعها فى السماء .

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت فى قلب المؤمن ، ولها فرع عال، وهى ثابتة فى قلب ثابت ، كما قال ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة ، والإيمان فى قلبه ثابت مستقر ، وهو فى نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ، والكلمة الخبيثة ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ٢٦] استؤصلت واجتثت ، كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض .

﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ لا مكان تستقر فيه ولا استقرار فى المكان ؛ فإن القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٩] وقال: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر : ٦٤] . ويقال : فلان ماله قرار ، أى ثبات .

وقد فسر « الْقَرَارُ » فى الآية بهذا وهذا ، فالمبطل ليس قوله ثابتاً فى قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر ، كما قال تعالى فى المثل الآخر : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه ، كالذى يشرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله .

وكذلك الأفعال الباطلة التى يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هى كالشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت ، كان له فرع فى السماء يوصله إلى الله ، فإنه سبحانه ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول ؛ لأنه ضيع الأصول ؛ ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ [الرعد : ١٤]

[م ١٣ / ١٥٧ - ١٦٠]

الجـــدال والاعتـــذار

قال النبى ﷺ « أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِمُ »[1] فهو يجادل عن نفسه بالباطل ، وفيه لدد : أى ميل واعوجاج عن الحق .

وهذا على نوعين : أحدهما : أن تكون مجادلتُه وذَبُّه عن نفسه مع الناس .

والثانى : فيما بينه وبين ربه ، بحيث يقيم أعذار نفسه ، ويظنها محقة وقصدها حسناً ، وهى خائنة ظالمة ، لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر .

قال شداد بن أوس : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية .

قال أبو داود : هى حب الرياسة .

وهذا من شأن النفس ، حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ، ويجادل الله بالباطل ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة ١٨ - ١٩] .

وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام ٢٢ - ٢٤] .

وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة ، حتى يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه . وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت : ٢٢] .

---

(١) البخارى (٢٤٥٧) ، مسلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة .

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والأيمان الفاجرة ، وصفهم الله بذلك في غير موضع .

وفي قصة تبوك لما رجع النبي ﷺ ، وجاء المنافقون يعتذرون إليه ، فجعل يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، فلما جاء كعب قال : «والله يا رسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه ، إني أوتيت جدلاً ؛ ولكن أخاف إن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لاوالله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

فقال النبي ﷺ : « **أما هذا فقد صدق** » (1)

يعني والباقي يكذبون ، ثم إنه هجره مدة ، ثم تاب الله عليه ببركة صدقه .

فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز ، بل إن أذنب سراً بينه وبين الله اعترف لربه بذنبه ، وخضع له بقلبه ، وسأله مغفرته وتاب إليه فإنه غفور رحيم تواب ، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً ، وإن أظهر جميلاً وأبطن قبيحاً تاب في الباطن من القبيح .

فمن أساء سراً أحسن سراً ، ومن أساء علانية أحسن علانية ، فإن ﴿ **الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ [هود : ١١٤]

[م١٤ / ٤٤٥ - ٤٤٧]

(١) البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب .

المؤمـــــن المتبـــــع

فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله ، لا له .

وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانة ، وسر بوجود مطلوبه .

وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويعلم أن الله قد مَنَّ عليه بان يجعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أى عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب ، التى ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شىء .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور ولم ينزل فى التوراة ، ولا فى إنجيل ، ولا فى الزبور ، ولا فى القرآن مثلها . فإن فيها ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ؛ لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ؛ لأنه إياه يستعين ، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان : ٩] ولا يَمُنُّ عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم أن الله هو المانُّ عليه، إذ استعمله فى الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص .

فعليه هو أن يشكر الله ؛ إذ يسره لليسرى ، وعلى ذلك أن يشكر الله ؛ إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر ، أو غير ذلك

[م ١٤/ ٣٢٩ - ٣٣٠]

خاتمة المجالس : « التوبة »

قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٧] .

قال أبو العالية : قال أصحاب محمد ﷺ : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور ، ويزداد هدى ، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك ، فيتوب مما تركه وفعله .

والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رَيْنِ الذنوب ، كما قال النبى ﷺ : « **إن العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلوَ قلبَه ، فذلك الرَّان الذى قال الله** » : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ [1] [المطففين : ١٤]

وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « **إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة** » [2] [م ١ /٣٣٦ - ٣٣٧] .

وهو سبحانه لا يحب إلا الحسنات ، ولا يحب السيئات ، وهو يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين ، ولا يحب كل مختال فخور ، ولا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، فإذا أحب عبداً وأذنب كان من

---

(١) الترمذى (٣٣٣٤) وقال : حسن صحيح . من حديث أبى هريرة .

(٢) مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزنى .

التوابين المتطهرين .

وبعض الناس يقول : الشاب التائب حبيب الله ، والشيخ التائب عتيقه ، وليس ذلك ، بل كل من تاب فهو حبيب الله سواء كان شيخاً أو شاباً ، وقد روى : أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب .

وهذا فعله مع عباده إذا أذنبوا ، إما أن يتوب عليهم ، وإما أن يبتليهم بما يطهرهم ، إذا لم يجعل السيئات تخفض درجتهم ، وإن لم يكن هذا ولا هذا انخفضت درجتهم بحسب سيئاتهم عن درجات من سواهم فى الحسنات وسَلِمَ من تلك السيئات ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف : ١٩] لأهل الجنة ولأهل النار درجات من أعمالهم بحسبها .

والعبد هو فقير دائماً إلى الله من كل وجه ، من جهة أنه معبوده ، وأنه مستعانه ، فلا يأتى بالنعم إلا هو ، ولا يصلح حال العبد إلا بعبادته ، وهو مذنب أيضاً ، لابد له من الذنوب ، فهو دائماً فقير مذنب ، فيحتاج دائماً إلى الغفور الرحيم ، الغفور : الذى يغفر ذنوبه ، والرحيم : الذى يرحمه فينعم عليه ويحسن إليه ، فهو دائماً بين إنعام الرب وذنوب نفسه ، كما قال أبو إسماعيل الأنصارى : إنه يسير بين مطالعة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل.

وكما قال ذلك العارف للحسن البصرى : إنى أصبح بين نعمة وذنب ، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً ، وللذنب استغفاراً [ج ١/١١٥ - ١١٦] .

والتوبة نوعان : واجبة ومستحبة

فالواجبة هى : التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور ، وهذه واجبة على جميع المكلفين كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى السنة رسله .

والمستحبة هى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات ، فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين ، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين . . .

والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه ، فالتوبة المشروعة هى الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه .

وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عن ما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها

فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها ، وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة

والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه ؛ بل يكون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك .

والله سبحانه كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما : ﴿ **وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ [البقرة ٣٥-٣٦] .

فكل عداوة كانت فى ذريتهما وبلاء ومكروه ، وتكون إلى قيام الساعة وفى النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى .

فالإنسان إذا كان مقيما على طاعة الله باطنا وظاهراً كان فى نعيم الإيمان ، والعلم وارد عليه من جهاته ، وهو فى جنة الدنيا ، كما فى الحديث : « **إذا**

مــررتم برياض الجنــة فارتعوا » قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : «**مجالس الذكر**»[1] . وقال : « **ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة** »[2] فإنه كان يكون هنا فى رياض العلم والإيمان .

وكلما كان قلبه فى محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى فلا زال فى علو ما دام كذلك ، فإذا أذنب هبط قلبه إل أسفل ، فلا زال فى هبوط ما دام كذلك ، ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة ، فإنْ أراد الله به خيراً ثاب وعمل فى حال هبوط قلبه إلى أن يستقيم فيصعد قلبه .

قال تعالى : ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [الحج : ٣٧] فتقوى القلوب هى التى تنال الله كما قال : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر : ١٠] فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فإنها لا تنالُ اللهَ [م ١٤ / ١٦٠ – ١٦١] .

قد يفعل الإنسان المحرم ثم يتوب ، وتكون مصلحته أنه يتوب منه ، ويحصل له بالتوبة خشوع ورقة ، وإنابة إلى الله تعالى ؛ فإن الذنوب قد يكون فيها مصلحة مع التوبة منها ، فإن الإنسان قد يحصل له بعدم الذنوب كبر وعجب وقسوة ، فإذا وقع فى ذنب أذله ذلك وكسر قلبه ، ولين قلبه بما يحصل له من التوبة .

ولهذا قال سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، ويفعل السيئة فيدخل بها الجنة .

وهذا هو الحكمة فى ابتلاء من ابتلى بالذنوب من الأنبياء والصالحين ، وإما بدون التوبة فلا يكون المحرم إلا مفسدته راجحة ، فليس للإنسان أن يعتقد حل

---

(١) أحمد (٣ / ١٥٠) والترمذى (٣٥١٠) وضعفه الألبانى .

(٢) البخارى (١١٩٥) ، ومسلم (١٣٩٠) عن عبدالله بن زيد ، والبخارى (١١٩٦) عن أبى هريرة .

ما يعلم أن الله حرمه قطعاً ، وليس له أن يفعله قطعاً ، فإن غلبته نفسه وشيطانه فوقع فيه تاب منه ، فإن تاب فصار بالتوبة خيراً مما كان قبله ، فهذا من رحمة الله به حين تاب عليه ، وإلا فلو لم يتب لفسد حاله بالذنب .

وليس له أن يقول : أنا أفعل ثم أتوب ، ولا يبيح الشارع له ذلك ، لأنه بمنزلة من يقول : أنا أطعم نفسى ما يمرضنى ثم أتداوى ، أو آكل السم ثم أشرب الترياق .

والشارع حكيم ، فإنه لا يدرى هل يتمكن من التوبة أم لا ؟ وهل يحصل الدواء بالترياق وغيره أم لا ؟ وهل يتمكن من الشرب أم لا ؟ لكن لو وقع ، هذا وكانت آخرته إلى التوبة النصوح كان الله قد أحسن إليه بالتوبة وبالعفو عما سلف من ذنوبه .

وقد يكون مثل هذا ليس صلاحه إلا فى أن يذنب ويتوب ، ولو لم يفعل ذلك كان شراً منه لو لم يذنب ويتوب ؛ لكن هذا أمر يتعلق بخلق الله وقدره وحكمته، لا يمكن أحد أن يأمر به الإنسان ؛ لأنه لا يدرى أن ذلك خير له ، وليس ما يفعله خلقاً – لعلمه وحكمته – يجوز للرسل وللعباد أن يفعلوه ، ويأمروا به [م ١٤ / ٤٧٤ – ٤٧٥] .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفقره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن – بسبب الذنب – من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك ، فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو فى ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها ؛ فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء فى بعض الآحاديث يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستى، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم » . أى محبهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

« وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب » .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها .

ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ، فإن من السيئات التى أصابته ، وهى إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله .

ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة ٦ - ٧] فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الذنوب هى من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى فى كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه ، فلماذا يسأل الهدى ؟

وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور فى كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم – صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين – إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .

فليسوا إلى شىء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء ، ورأى ما فى النفوس من الجهل والظلم الذى يقتضى شقاءها فى الدنيا والآخرة ، فيعلم أن الله – بفضله ورحمته – جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

[م ١٤ / ٣١٨ – ٣٢١]

مجلس فى « مكفرات الذنوب »

دلت نصوص الكتاب والسنة : على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب :

أحدها : التوبة ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [التوبة : ١٠٤] وقال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [الشورى : ٢٥] وأمثال ذلك .

السبب الثاني: الاستغفار ، كما فى « الصحيحين » [١] عن النبى ﷺ أنه قال: « **إذا أذنب عبد ذنباً فقال : أى رب ! أذنبت ذنباً فاغفر لى ، فقال : علم عبدى أنَّ له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أى رب ! أذنبت ذنباً آخر ، فاغفره لى ، فقال ربه : علم عبدى أنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، فليفعل ما شاء، قال ذلك فى الثالثة ، أو الرابعة** » .

وفى « صحيح مسلم » أنه قال : « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم** » [٢] .

وقد يقال على هذا الوجه الاستغفار هو مع التوبة كما جاء فى حديث « **ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم مائة مرة** » [٣] وقد يقال : بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع ، وبسط هذا له موضع آخر ، فإنَّ هذا الاستغفار إذا كان

---

(١) البخارى (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبى هريرة .

(١) مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبى هريرة .

(٢) أبو داود (١٥١٤) ، والترمذى (٣٥٥٩) وضعفه .

مع التوبة مما يحكم به ، عام فى كل تائب ، وإن لم يكن مع التوبة فيكون فى حق بعض المستغفرين ، الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب ، كما فى حديث البطاقة (*) بأنَّ قول : لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات ؛ لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذى يمحو السيئات ، وكما غفر للبغى بسقى الكلب (**) لما حصل فى قلبها إذ ذاك من الإيمان وأمثال ذلك كثير .

السبب الثالث : الحسنات الماحية كما قال تعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] وقال ﷺ : **«الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر»** (١) .

وقال : **« من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »** (٢) .

وقال : **« من قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »** (٣) .

وقال : **« من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »** (٤) .

وقال : **« فتنة الرجل فى أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »** (٥) .

---

(١) مسلم (٢٣٣) من حديث أبى هريرة .
(٢) البخارى (٣٨) ، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبى هريرة .
(٣) البخارى (٣٥) ، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبى هريرة .
(٤) البخارى (١٨١٩) ، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبى هريرة .
(٥) البخارى (٥٢٥) ، ومسلم (١٤٤) من حديث حذيفة .
(*) الترمذى (٢٦٣٩) وحسنه ، وابن ماجة (٤٣٠٠) ، وأحمد (٢/٢١٣) من حديث عبدالله بن عمرو .
(**) البخارى (٣٤٦٧) ، مسلم (٢٢٤٥) من حديث أبى هريرة .

وقال : « **من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه** » [1] وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح . وقال : « **الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب** » [2] .

السبب الرابع الدافع للعقاب : دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته ، فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « **ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة ، كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه** » . وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئاً ، إلا شفعهم الله فيه** » رواهما مسلم [3]، وهذا دعاء له بعد الموت ، فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقى الذى اجتنب الكبائر ، وكفرت عنه الصغائر وحده ، فإنَّ ذلك مغفور له عند المتنازعين ، فعلم أنَّ هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت .

السبب الخامس : ما يعمل للميت من أعمال البر ؟ كالصدقة ونحوها ، فإن هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة ، واتفاق الأئمة وكذلك العتق، والحج ، بل قد ثبت عنه فى « الصحيحين » [4] أنه قال : « **من مات وعليه صيام صام عنه وليه** » وثبت مثل ذلك فى الصحيح من صوم النذر من وجوه أخرى ، ولا يجوز أن يعارض هذا بقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] لوجهين :

---

(١) البخارى (٢٥١٧) ، ومسلم (١٥٠٩) من حديث أبى هريرة .

(٢) ابن ماجة (٤٢١٠) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» والشطر الأول رواه الترمذى (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ، وقال : حسن غريب ، و (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل ، وقال : حسن صحيح .

(٣) حديث عائشة (٩٤٧) ، وحديث ابن عباس (٩٤٨) .

(٤) البخارى (١٩٥٢) ، ومسلم (١١٤٧) من حديث عائشة .

أحدهما : أنه قد ثبت بالنصوص المتواترة ، وإجماع سلف الأمة أن المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه ، كدعاء الملائكة ، واستغفارهم له ، كما في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [غافر : ٧] الآية . ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم كما في قوله تعالى : ﴿ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٣] وقوله سبحانه : ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ** ﴾ [التوبة : ٩٩] وقوله عز وجل : ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد : ١٩] وكدعاء المصلين للميت ، ولمن زاروا قبره من المؤمنين .

الثاني : أنَّ الآية ليست في ظاهرها إلا أنه ليس له إلا سعيه ، وهذا حق فإنه لا يملك ولا يستحق إلا سعي نفسه ، وأما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه ، لكن هذا لا يمنع أن ينفعه الله ويرحمه به ، كما أنه دائماً يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم ، وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد ليثيب أولئك على تلك الأسباب ، فيرحم الجميع كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « **ما من رجل يدعو لأخيه بدعوة إلا وكل الله به ملكا ، كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل** » [١] .
وكما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : « **من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان ، أصغرهما مثل أحد** » [٢] فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له ، ويرحم الميت أيضاً بدعاء هذا الحي له .

السبب السادس : شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة ، كما قد تواترت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله ﷺ في الحديث الصحيح :

---

(١) مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء .
(٢) البخاري (١٣٢٣) ، ومسلم (٩٤٥) من حديث أبي هريرة ، ومسلم (٩٤٦) من حديث ثوبان .

«شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» [1] وقوله ﷺ : **« خيرت بين أن يدخل نصف أمتى الجنة ؛ وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكثر ؛ أترونها للمتقين ؟ لا ، ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين »** [2] .

السبب السابع : المصائب التى يكفر الله بها الخطايا فى الدنيا كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : **« ما يصيب المؤمن من وصب ، ولا نصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا غم ، ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه »** [3] .

السبب الثامن : ما يحصل فى القبر من الفتنة والضغطة والروعة فإن هذا مما يكفر به الخطايا .

السبب التاسع : أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها .

السبب العاشر : رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد ، فإذا ثبت أنَّ الذم والعقاب قد يدفع عن أهل الذنوب بهذه الأسباب العشرة ؛ كان دعواهم أنَّ عقوبات أهل الكبائر لا تندفع إلا بالتوبة مخالف لذلك .

[م ٧/ ٤٨٧ – ٤٨٨] .

---

(١) أحمد (٣/ ٢١٣) ، والترمذى (٢٤٣٦) من حديث جابر ، وقال الترمذى : حسن غريب .
ومن حديث أنس أبو داود (٤٧٣٩) ، والترمذى (٢٤٣٥) وقال : حسن صحيح غريب .

(٢) أحمد (٢/ ٧٥) من حديث ابن عمر ، وابن ماجة (٤٣١١) . وصححه – والذى قبله – الألبانى فى «صحيح الجامع» .

(٣) متفق عليه تقدم فى « موعظة الصبر » ص ٩٤.

وقال شيخ الإسلام – فى موضع آخر – :

الذنوب مطلقاً من جميع المؤمنين هى سبب العذاب ، لكن العقوبة بها فى الآخرة فى جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب :

السبب الأول : التوبة

فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب : الكفر ، والفسوق ، والعصيان . قال الله تعالى : ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [سورة الانفال : ٣٨] وقال تعالى : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** ﴾ [سورة التوبة : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [سورة : المائدة ٧٣ – ٧٤]

وقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ [سورة البروج : ١٠] قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود، فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة .

والتوبة عامة لكل عبد مؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [سورة الاحزاب ٧٢ – ٧٣]

وقد أخبر الله فى كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة ، كقوله : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [سورة البقرة : ٣٧]

وقول إبراهيم وإسماعيل : ﴿ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [سورة البقرة ١٢٧ – ١٢٨] .

وقال موسى : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الاعراف ١٥٥ - ١٥٦] .

وقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص : ١٦] .

وقوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣]

وكذلك ما ذكره فى قصة داود وسليمان وغيرهما .

وأما المأثور عن النبى ﷺ من ذلك فكثير مشهور ، وأصحابه كانوا أفضل قرون الأمة ، فهم أعرف القرون بالله ، وأشدهم له خشية ، وكانوا أقوم الناس بالتوبة فى حياته وبعد مماته ...

والذنب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك ما لم يكن يحصل قبل ذلك .

ولهذا قال طائفة من السلف : إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة ، ويفعل الحسنة فيدخل بها النار ؛ يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة ، ويفعل الحسنة فيُعجب بها فيدخل النار .

وفى الأثر : لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أعظم من الذنب ، وهو العُجب . وفى أثر آخر : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه .

وفى أثر آخر : يقول الله تعالى : أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنّطهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، فإن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهّرهم من المعايب ، والتائب حبيب الله سواء كان شابا أو شيخا .

السبب الثاني : الاستغفار

فإن الاستغفار هو طلب المغفرة ، وهو من جنس الدعاء والسؤال ، وهو مقرون بالتوبة فى الغالب ومأمور به

لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو ، وقد يدعو ولا يتوب . وفى الصحيحين[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « **أذنب عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لى ذنبى . فقال الله تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال : أى رب اغفر لى ذنبى فقال تعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب اغفر لى ذنبى. فقال تعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدى** » وفى رواية لمسلم : « **فليفعل ما شاء** » .

والتوبة تمحو جميع السيئات ، وليس شىء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة ، فإن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . وأما التوبة فإنه قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [سورة الزمر : ٥٣] وهذه لمن تاب . ولهذا قال : ﴿ **لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾ بل توبوا إليه وقال بعدها : ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾ [سورة الزمر : ٥٤] وأما الاستغفار بدون التوبة ، فهذا لا يستلزم المغفرة ، ولكن هو سبب من الأسباب .

السبب الثالث : الأعمال الصالحة

فإن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [سورة هود : ١١٤] وقال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل يوصيه : « **يا معاذ ، اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** »[2] .

---

(١) تقدم آنفاً ص ١٦٠ .

(٢) أحمد (٥/ ٢٣٦) والترمذى (٤/ ٣٥٦) وحسنه الألبانى .

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « **الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفَّارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** » أخرجاه فى الصحيحين [١] .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « **من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه** » [٢] . وقال : « **من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه** » [٢] .

وقال : « **أرايتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات** ، ، **هل كان يبقى من درنه شىء** » **قالوا : لا . قال** : « **كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا كما يمحو الماء الدرن** » . وهذا كله فى الصحيح [٣] .

وقال : « **الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار** » رواه الترمذى وصححه [٤] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾

[سورة الصف : ١٠ – ١٢] .

وفى الصحيح : « **يغفر للشهيد كل شىء إلا الدين** » [٥] . **وما روى : أن** « **شهيد البحر يغفر له الدين** » [٦] ، فإسناده ضعيف . والدين حق لآدمى فلابد من استيفائه .

(١ ، ٢) تقدم آنفاً ص ١٦١ . (٣) البخارى (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٧) من حديث أبى هريرة .

(٤) رقم (٢٦١٦) . (٥) مسلم (١٨٨٦) من حديث عبدالله بن عمرو .

(٦) ابن ماجة (٢٧٧٨) وقال الألبانى : موضوع .

وفى الصحيح : « **صوم يوم عرفة كفّارة سنتين ، وصوم يوم عاشوراء كفّارة سنة** »[1] . ومثل هذه النصوص كثير ، وشرح هذه الأحاديث يحتاج إلى بسط كثير .

فإن الإنسان قد يقول : إذا كُفِّر عنى بالصلوات الخمس ، فأىّ شىء تكفر عنى الجمعة أو رمضان ، وكذلك صوم يوم عرفة وعاشوراء ؟ وبعض الناس يجيب عن هذا بأنه يكتب لهم درجات إذا لم تجد ما تكفّره من السيئات .

فيقال : أولا : العمل الذى يمحو الله به الخطايا ويكفّر به السيئات هو العمل المقبول .

والله تعالى إنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِنَ المتقين .

والناس لهم فى هذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [سورة المائدة : ٢٧] ثلاثة أقوال : طرفان ووسط . فالخوارج والمعتزلة يقولون : لا يتقبل الله إلا ممن اتّقى الكبائر . وعندهم صاحب الكبيرة لا يُقبل منه حسنة بحال .

والمرجئة يقولون : من اتّقى الشرك . والسلف والأئمة يقولون : لا يتقبل إلا ممن اتّقاه فى ذلك العمل ففعله كما أُمر به خالصا لوجه الله تعالى .

قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [سورة هود : ٧] قال : أخلصه وأصوبه .

قيل : يا أبا علىّ ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة .

---

(١) مسلم (١١٦٢) من حديث أبى قتادة .

فصاحب الكبائر إذا اتقى الله فى عمل من الأعمال تقبل الله منه . ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله فى عمل لم يتقبله منه . وإن تقبل منه عملا آخر

وإذا كان الله إنما يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به ففى السنن عن عمَّار عن النبى ﷺ أنه قال : « **إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يُكتب له منها إلا نصفها ، إلا ثلثها ، إلا ربعها ، حتى قال : إلا عشرها** » [1]

قال ابن عباس : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها .

وفى الحديث : « **رب صائم حظه من صيامه العطش ، ورب قائم حظه من قيامه السهر** » [2] . وكذلك الحج والجهاد وغيرهما .

وفى حديث معاذ موقوفا ومرفوعا ، وهو فى السنن : « **الغزو غزوان : فغزو يبتغى به وجه الله ، ويُطاع فيه الأمير ، وتُنفق فيه كرائم الأموال ، ويُياسر فيه الشريك ، ويجتنب فيه الفساد ، ويُتقى فيه الغلول ، فذلك الذى لا يعدله شىء . وغزو لا يُبتغى به وجه الله ، ولا يُطاع فيه الأمير ، ولا تُنفق فيه كرائم الأموال ، ولا يُياسر فيه الشريك ، ولا يُجتنب فيه الفساد ، ولايُتَّقى فيه الغلول ، فذاك حسب صاحبه أن يرجع كفافا** » [3] .

وقيل لبعض السلف : الحاجّ كثير . فقال : الداج كثير ، والحاج قليل . ومثل هذا كثير .

فالمحو والتكفير يقع بما يُتقبّل من الأعمال ، وأكثر الناس يقصّرون فى الحسنات ، حتى فى نفس صلاتهم ، فالسعيد منهم من يُكتب له نصفها ، وهم يفعلون السيئات كثيرا ، فلهذا يُكفَّر بما يُقبل من الصلوات الخمس شىء ،

---

(١) أبو داود (٧٩٦)

(٢) ابن ماجة (١٦٩٠) عن أبى هريرة ، وصححه الألبانى

(٣) أبو داود (٢٥١٥) والنسائى (٦/ ٤١) .

وبما يُقبل من الجمعة شيء ، وبما يُقبل من صيام رمضان شيء آخر . وكذلك سائر الأعمال ، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة ، بل المحو يكون للصغائر تارة ، ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة .

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله ، فيغفر الله له به كبائر ، كما فى الترمذى وابن ماجة وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال : « **يُصاح برجل من أمتى يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجلٍ منها مدّ البصر . فيقال : هل تنكر من هذا شيئا ؟ فيقول : لا يارب . فيقول لا ظلم عليك . فتخرج له بطاقة قدر الكف ، فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، فيقول : أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فتوضع هذه البطاقة فى كفة ، والسجلات فى كفة ، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات** » [١] .

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق ، كما قالها هذا الشخص وإلا فاهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون : لا إله إلا الله ، ولم يترجّح قولهم على سيئاتهم ، كما ترجّح قول صاحب البطاقة .

وكذلك فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « **بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه فيها العطش ، فوجد بئرا ، فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه حتى رقَى ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له** » [٢] .

وفى لفظ فى الصحيحين : « **إن امرأة بغيًا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أُدلع لسانه من العطش ، فنزعت له موقها فسقته به ، فغُفر لها** » [٣] وفى لفظ فى الصحيحين أنها كانت بغيًا من بغايا بنى إسرائيل .

---

(١) الترمذى (٢٦٣٩) ، وابن ماجة (٤٣٠٠) وتقدم ص ١٦١ .

(٢) البخارى (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤) (٣) البخارى (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥) وتقدم ١٦١ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « **بينما رجل يمشى فى طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره فشكر الله له ، فغفر له** »[1]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **دخلت امرأة النار فى هرّة ، ربطتها لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت** »[2] .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان فى قلبها فغفر لها ، وإلا فليس كلّ بغىٍّ سقت كلبا يغفر لها . وكذلك هذا الذى نحَّى غصن الشوك عن الطريق ، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغُفر له بذلك .

فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب من الإيمان والإخلاص ، وإن الرجلين ليكون مقامهما فى الصف واحداً ، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض . وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له .

قال الله تعالى : ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [سورة الحج : ٣٧] فالناس يشتركون فى الهدايا والضحايا ، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول ، والتصدُّق به ، لكن يناله تقوى القلوب.

وفى الأثر : أن الرجلين ليكون مقامهما فى الصف واحدا ، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب (*) .

فإذا عُرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر بما فى القلوب ، وما فى القلوب يتفاضل ، لا يَعْرف مقادير ما فى القلوب من الإيمان إلا الله ؛ عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ، ولم يضرب بعضه ببعض .

---

(١) البخارى (٦٥٢) ، ومسلم (١٩١٤) .

(٢) مسلم (٢٦١٩) .

(*) حكم الحافظ العراقى عليه بالوضع فى «تخريج الإحياء» (١٤٧/١) .

السبب الرابع : الدعاء للمؤمنين فإن صلاة المسلمين على الميّت ودعاءهم له من أسباب المغفرة ، وكذلك دعاؤهم واستغفارهم فى غير صلاة الجنازة . . .

السبب الخامس : دعاء النبى ﷺ واستغفاره فى حياته وبعد مماته ، كشفاعته يوم القيامة . . .

السبب السادس: ما يُفعل بعد الموت من عمل صالح يُهدى له ، مثل من يتصدَّق عنه ، ويحج عنه ويصوم عنه ، فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن ذلك يصل إلى الميت وينفعه ، وهذا غير دعاء ولده ، فإن ذلك من عمله .

قال النبى ﷺ : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » رواه مسلم [(١)] . فولده من كسبه ، ودعاؤه محسوب من عمله ، بخلاف دعاء غير الولد ، فإنه ليس محسوبا من عمله ، والله ينفعه به .

السبب السابع : المصائب الدنيوية التى يكفِّر الله بها الخطايا كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « **ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نصب ، ولا غم ولا هم ولا حزن ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكّها ، إلا كفَّر الله بها من خطاياه** » [(٢)] .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « **مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيِّئها الرياح ، تقومها تارة وتميلها أخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة ، لا تزال ثابتة على أصلها ، حتى يكون انجعافها مرة واحدة** » [(٣)] .

وهذا المعنى متواتر عن النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة .

---

(١) رقم (١٦٣١) .

(٢) تقدم آنفاً ص ٩٤، وهو متفق على صحته .

(٣) البخارى (٥٦٤٣) ومسلم (٢٨١٠) من حديث كعب .

السبب الثامن : ما يُبتلى به المؤمن فى قبره من الضغطة وفتنة الملَكَين .

السبب التاسع : ما يحصل له فى الآخرة من كرب أهوال يوم القيامة

السبب العاشر : ما ثبت فى الصحيحين [1] أن المؤمنين إذا عبروا الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتصّ لبعضهم من بعض فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم فى دخول الجنة [المنهاج ٦ / ٢٠٥ – ٢٣٨]

---

(١) البخارى (٢٤٤٥) .

مجلس فى « الاستغفار »

قال رسول الله ﷺ : «**سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها ، فمات فى يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة**» [1] .

فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى الشكر ، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً ، فإنه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار .

ولهذا كان سيد ولد آدم،وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفر فى جميع الأحوال وقال ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى : « **أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة** » [2] .

وفى « صحيح مسلم » أنه قال : « **إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة** » [3] .

وقال عبد الله بن عمر : كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول : «**رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور** » [4] مائة مرة .

ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] وقال بعضهم : أحْيَوْا الليل بالصلاة ، فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار .

---

(١) البخارى (٦٣٠٦) .

(٢) مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزنى ، والبخارى (٦٣٠٧) من حديث أبى هريرة وليس فيه « **أيها الناس توبوا إلى ربكم** »

(٣) مسلم (٢٧٠٢) .

(٤) أحمد (٢/٢١) ، وأبو داود (١٥١٦) ، وابن ماجة (٣٨١٤) .

وفى الصحيح :أن النبى ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال : **«اللهم أنت السلام ، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»** (١) وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل : ٢٠] وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده ، وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه أحد غيره ، فقال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

[سورة النصر] .

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار،كما قال الله تعالى: ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ [هود ١ - ٣] الآية .

وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت : ٦] وقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] .

ولهذا جاء فى الحديث : « **يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار** » (٢) وقد قال يونس : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وكان النبى ﷺ إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول : « **لا إله إلا أنت سبحانك ، ظلمت نفسى فاغفر لى** » (٣) .

وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس : « **سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك** » (٤) .

---

(١) مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان ، و (٥٩٢) من حديث عائشة .

(٢) إسناده موضوع ، تقدم فى موعظة «إخلاص التوحيد» ص ٢٩ .

(٣) أبو داود (٢٦٠٢) ، والترمذى (٣٤٤٦) ، وقال : حسن صحيح .

(٤) تقدم فى موعظة « إخلاص التوحيد » وقدرواه أبو داود (٤٨٥٨) والترمذى (٣٤٣٣) وقال : حسن صحيح والحمد لله رب العالمين .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وسلم [م ١٠/٨٨ - ٩٠] .

انتهى ما جمعته من مواعظ شيخ الإسلام ، وأحواله ، وكلماته الجامعة - الجزء الأول - وختمته بمجلس التوبة رجاءَ أن أكون ممن يتوب من قريب أنا وجميع المسلمين ، ويرزقنا حسن الخاتمة ، آمين .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

عادل فتحي رياض



مطبعة العمرانية للاوفست

الجيزة ت : ٥٨١٧٥٥٠